المركزالعربي للأبحاث ودراسة السياسات ARAB CENTER FOR RESEARCH & POLICY STUDIES

(معهد الدوحة)

www.dohainstitute.org

دراسة

مأزق الانتقال السياسي في الجزائر ثارق الانتقال السياسي في الجزائر مأزق الاثنة أجيال وسيناريوان

سلسلة (دراسات وأوراق بحثية)

•••••	مأزق الانتقال السبياسي في الجزائر
•••••	ثلاثة أجيال وسيناريوان
١	مقدّمة
۲	١ . الانتقال على الطريقة الجزائريّة
۲	٢. الجيل الأوّل: جيل الثّورة وبناء الدّولة الوطنيّة
٩	3. جيل الاستقلال والبناء الوطنيّ
١٣	4. الجيل الثّالث: جيل الفعل المباشر والحركات الاحتجاجيّة.
١٣	٥. العلاقات بين الأجيال: والنّظرة إلى الآخر
١٨	٦. سيناريوهات الانتقال
۲ ٠	٧. شروط الانتقال: بين العوامل الموضوعيّة والذاتيّة

مقدّمة

أفرز الحراك السياسيّ النّوعي الّذي تعيشه المجتمعات العربيّة منذ بداية عام ٢٠١١؛ بدءًا من تونس، ومرورًا بمصر واليمن، ووصولًا إلى ليبيا وسورية وحتّى المغرب؛ تحوّلات سياسية ذات أبعاد ديموغرافيّة، فقد عاد الحديث بقوّة عن جيل الشّباب ودوره السّياسيّ، بعد اندلاع هذه الأحداث الّتي أدّت إلى تهديد وإسقاط أنظمة سياسيّة هرمة ومشاريعها لتوريث الحكم للجيل الثّاني من أبناء الحكّام، وهي أنظمة سياسيّة سيطرت فيها وفي الغالب – "العائلة "على الفعل السّياسيّ الرّسميّ على نحوٍ واضح، فاحتكرت المال والسّلاح والسّياسة، كمثل الّذي حدث في مصر واليمن وليبيا، وسبقها النّظام السّوريّ إلى تدشين مشاريع التّوريث السّياسيّ للجيل الثّاني من الحكّام في المنطقة العربيّة.

ظهرت فئة الشّباب كمبادر بهذا الحَرَاك السّياسيّ النّوعيّ، وتمكّنت من كسب تجنيد شعبيّ قويّ من فئاتٍ اجتماعيّةٍ أوسعَ وأكثرَ تتوّعًا. وتتميّز هذه الفئات الشّابّة بخصائص سوسيولوجيّة وثقافيّة، مثل انتمائها للفئات الوسطى الحضريّة – كما كان بارزًا في الحالة المصريّة – حيث استفادت تلك الفئات من تعليمها العالي وإجادتها التّامّة للّغات الأجنبيّة، ممّا أهلها للاستفادة القُصوى من تقنيات الميديا الجديدة، الّتي وظفتها بقوّةٍ في إنجاح الحركات الاحتجاجيّة، والمبادرة بها في غفلةٍ من أجهزة الدّولة القمعيّة والمعارضة الرّسميّة، الّتي تحدثت عن التّغيير والإصلاح طويلًا دونما أدنى إنجاز على أرض الواقع.

وأضحى انتشار التعليم كمتغير رئيس هو الآخر مُعطًى ديموغرافيًا وسياسيًا في هذا الحَراك العربيّ، حتّى في حالة اليمن، الّتي قيل الكثير عن محدوديّة انتشار التّعليم فيها، مقارنةً بالحالة العربيّة العامّة.

نحن -باختصار - أمام إفرازاتٍ نوعيّةٍ لهذه التّحوّلات الدّيموغرافيّة الّتي عاشتها المجتمعات العربيّة في العقود الأخيرة، نتيجة انتشار التّعليم وتأثيراته المعروفة؛ كخروج المرأة إلى العمل، وتنظيم النّسل، والهجرة إلى المدن، وتفكّك قيم التّشئة الاجتماعيّة التّقايديّة، وغلبة حالة العائلة النّوويّة بصورةٍ أوسع. لقد سمحت هذه التّداعياتُ مُجتمعة ببروزٍ واضحٍ لقيم "الأنا " عند جيل الشّباب الّذي بادر بالحَراك السّياسيّ في أكثر من حالة عربيّة. وجرى هذا الحَراكُ خارج مؤسسات "الأب" السّياسيّة الّتي يمثلها النّظام السّياسيّ الرّسميّ والحزبُ السّياسيّ العربيّ أحسنَ تمثيلٍ، بقيمه الأبويّة، وممارساته التّسلطيّة؛ كما استشْرت هذه الخصائص لدى الحزب المعارض المنادي بالتّغيير.

١

١ . الانتقال على الطريقة الجزائريّة

سنحاول دراسة حالة الانتقال السياسي في الجزائر انطلاقًا من هذه الإشكاليّة الدّيموغرافيّة، بكلّ ما يميّزها في الحالة الجزائريّة من خصائص ونتائج على المستوى السياسيّ. وسننحاز في دراسة هذه الإشكاليّة الدّيموغرافيّة إلى مُؤلَّف كارل منهايم عن إشكاليّة الأجيال السياسيّة (۱)، ومُؤلِّفات إيمانويل تود (۲) عن إشكاليّة تأثير انتشار التّعليم ومحو أميّة البنات -تحديدًا - مع كلّ ما يتبعها من تقليصٍ في معدّلات الإنجاب، وما يرتبط به من اضطراب قيم التّشئة العائليّة، وما يتربّب عليها من سُلوكٍ سياسيّ جديد لدى الأجيال الشّابّة. ويعترف إيمانويل تود، في الفصل الّذي خصيصه لدراسة التحوّلات الّتي عاشها العالم العربيّ على المستويات الدّيموغرافيّة وتداعياتها السياسيّة، بأنّ النّحوّلات في الجزائر -مقارنةً بالحالة العربيّة - لم تكن سهلةً دائمًا (۱).

ويرى كلِّ من إمانويل تود ويوسف كرباج "أنّ التقدّم الثقّافيّ يُربك النّاس، وأنّه لا بُدّ من تصوّرِ مُجتمعٍ ينتشرُ فيه التّعليم انتشارًا كبيرًا، ليتحوّل إلى قاعدةٍ سائدة. وعليه؛ فإنّ أيّ مجتمع ينتشر فيه التّعليم، سرعان ما تضطرب فيه علاقات السلطة داخل العائلة الواحدة، حيث يُصبح الابن متحكّمًا في القراءة، ويبقى الأب أمّيًا. كذلك؛ فإنّ أساليب تنظيم الولادات الّتي نظهر بعد انتشار التعليم، عادةً ما تُعيد النّظر في العلاقات التقليدية بين الرّجل والمرأة، ولاسيّما في سلطة الرّجل على زوجته. لتؤدّي هذه القطيعة المتعدّدة المستويات في العلاقات السلطوية آخر الأمر إلى إرباكٍ عامً للمُجتمع؛ بل إلى انهيارٍ مؤقّتٍ للسلطة السّياسية في الغالب.. وقد يكون هذا الانهيارُ عنيفًا. بصيغة أخرى؛ فإنّ عصر محو أميّة المجتمعات، وانتشار التّعليم، وتحديد النّسل، هو عصر الثّورات "(أ). ويعود المؤلّفان ليقرّرا في نهاية الأمر – بحسب قراءتِهما واستنتاجِهما – أنّ النّورات الإنكليزيّة والرّوسيّة والصّينيّة، ما هي إلّا أمثلة ساطعة منطبقة تمامًا على اتّجاهات ما يجري في العالم العربيّ.

¹ Karl Mannheim, Le Problème des générations (1928), trad. Gérard Mauger, (Paris: Nathan, 1990).

² Emmanuel Todd ,Youssef Courbage, *Le rendez –vous des civilisations* , (Paris : éd. seuil et la république des Idées , 2007).

Emmanuel Todd, La diversité du monde : famille et modernité, (Paris : éd. seuil, 1999).

³ Emmanuel Todd, Youssef Courbage , *Le rendez –vous des civilisations*, (Paris, éd. Seuil et la république des Idées , 2007), p. 73.

أ المصدر السابق، ص ٣٢.

يركّز كارل منهايم في طرحه لإشكاليّة الجيل على الفروق بين الأجيال من الجوانب البيولوجيّة والتّاريخيّة والسيسيولوجيّة، ليتحدّث عمّا سمّاه "اللّحظة الجيليّة" الّتي تُميِّزُ كلَّ جيلٍ عن الآخرِ قائلًا: "إنّها لحظةُ تكوُنِ تجرِبةٍ جماعيّةٍ لجيلٍ مُعيّنٍ، تدفعُ به ليسلك سُلُوكًا معيّنًا، وليتميّز كذلك بثقافةٍ سياسيّةٍ معيّنة. فهي إذًا؛ تجرِبة تجعلُه يختلف عن الأجيال الأخرى، خاصّة إذا ربطنا ذلك بتَشَكُّلِ الحركات الاجتماعيّة. وهكذا تبقى إشكاليّةُ الجيل الشكاليّة مُهمّة لابد من تناولها بجديّةٍ، باعتبارها أحد المحاور الضّروريّة لفهم تَشَكُّلِ الحركات الاجتماعيّة والفكريّة. أمّا جانبُها العمَلِيّ؛ فيصبح أمرًا مفروعًا منه حالَ فَهِمنَا التّحولاتِ المتسارِعة للحدثيّة الرّاهنة فهمًا دقيقًا" (٥٠).

ويتساءلُ كارل منهايم عمّا يؤسّس لوَحدة جيلٍ ما، وعن الكثافة الكبيرة في العلاقات الّتي تظهر بين أبناء ذلك الجيل، لكنّه يعود ليقول: "إنّ أوّل ما يبدو؛ عند تصوّرنا لوَحدة جيلٍ بعينه، هو ذلك التّقاربُ العميقُ للمُكوِّنات النّي تكوِّن وعيَ كلِّ فرد. ولهذه المُكوِّناتِ –من وُجهةِ نظرٍ سيسيولوجيّة – أهميّتُها؛ لا بسببِ معانيها ودلالاتها فحسب، بل لكونها تُشكِّل مجموعةً من أفرادٍ معزولينَ يملكون قوَّةَ تنشِئةِ اجتماعيّة"(٦).

بهذا المعنى؛ فإنّنا نكونُ الفتراضًا المامَ ثلاثةِ أجيالٍ سياسيّةٍ أساسيّةٍ في الجزائر، ارتبط بها إنجازُ عمليّة الانتقال السياسيّ الّتي لن تكون سياسيّةً فقط؛ بل ديموغرافيّة كذلك، ممّا يزيدها الطعًا صعوبةً. فالانتقال السياسيّ التي الدرير وأنجز الاستقلال الوطنيّ المسلس في الجزائر، يعني انتقال السلطة السياسيّة من الجيل الّذي قاد ثورة التّحرير وأنجز الاستقلال الوطنيّ إلى الأجيال الّتي تلته.

لقد استمرّ جيل التّحرير على رأس الدّولة الوطنيّة بعد الاستقلال إلى الآن. فالجيل المولود بين العقدين الثّاني والثّالث من القرن الماضي، هو ما نُسمّيه في هذه الدّراسة بالجيل الأوّل. وعليه، سيكون الانتقال السّياسيّ لصالح الجيل الثّاني الّذي وُلد في السّنوات الأخيرة من حرب التّحرير (١٩٥٤-١٩٦٢) وبدايات الاستقلال. إلّا أنّ هذا الجيل يبقى مختلفًا عن الجيل الأوّل على أكثر من صعيد، فهو جيلٌ أحسنُ تعليمًا وأكثرُ مدنيّةً من الجيل الأوّل.

5

⁵ Karl Mannheim, Le Problème des générations, Op. Cit., P. 7.

⁶ *Ibid.*, p19.

هذا ما سميناه سيناريو الانتقال الهادئ والسلّس للسلطة من الجيل الأوّل إلى الجيل الثّاني، فالجيلان يعرفان بعضهما البعض، ويملكان نظرةً إيجابيّةً عن بعضهما البعض كذلك، وهو ما يُسهِّلُ عمليّة الانتقال ويجعلُها إيجابيّةً لتدفع بالأوضاع في الجزائر نحو الأمام. إنّ عمليّة الانتقال السّياسيّ بين جيلين، ستُبقي الجزائر في حدود الوطنيّة؛ حيث الوطنيّة هي: فكرةً سياسيّةٌ سائدةٌ ومهيمنةٌ، حتّى ولو اعتراها بعضُ التّغيير جرّاءَ هذا الانتقال الّذي لن يكون إلّا في اتّجاهٍ أكثرَ انفتاحًا على العصر وقَبولًا من المجتمع.

على العكس من هذا السيناريو الإيجابي، يمكننا تَصورُ سيناريو آخر أكثر اضطرابًا وأحد قطيعة، مُقارنة بالسيناريو الأوّل. إنّه سيناريو انتقال السلطة من الجيل الأوّل إلى الجيل الثّالث الأصغر سِنًا، والمختلف من حيث تتشئته وخصائص لحظتِه السياسيّة، كما يقول كارل منهايم. فهو جيل الفعل المباشر، الذي وُلِدَ وعاش وتربّى في فترة ما بعد الاستقلال، وهي فترة بدأت فيها مشاريع الدّولة الوطنيّة تشهد الكثيرَ من الشُروخ والإعياء. إنّه الجيلُ الذي قاد الحركاتِ الاحتجاجيّة وعبّر من خلالها عن رفضه لأوضاعه، وعن معارضته للفئات الحاكمة، وسلطتها السياسيّة، ومؤسساتها، وخطابها السياسيّ. هذا؛ مع افتراضنا في هذه الدّراسة، أنّ الجيل الأوّل قد وصل إلى نهاية مشواره في الحياة، لأنّه أصبح هرمًا بيولوجيًّا، فضلًا عن الاعتبارات السياسيّة الأخرى المرتبطة بتسييره للشّأن العامّ، ممّا يحتّم ضرورة انتقال السلطة السياسيّة إلى جيلٍ أصغرَ سنًا.

مهما كانت نوعيّةُ الانتقال وتداعياتُها، سواءً تعلّق الأمرُ بالسّيناريو الأوّل أو الثّاني؛ فالجزائر –من هذا المنظار – تعيش في وضعيّةٍ تُشبه كثيرًا المرحلة الأخيرة من الحقبة السّوفييتيّة الّتي شاخت فيها القيادة السّياسيّة كلُّها في وقتٍ واحد، باعتبارها وليدة الجيل نفسه تقريبًا. إنّها مرحلةُ انقراضٍ بيولوجيِّ لجيلٍ كاملٍ – في الفترة نفسها تقريبًا – بكلِّ ما حمله معه من تداعياتٍ سياسيّةٍ ومؤسّساتيّةٍ معروفةٍ، أثرت بحدةٍ – في آخر أيّام التّجربة السّوفييتيّة – في مشاريع الانتقال السّياسيّ.

يخبرنا تاريخ الجزائر السياسي، أن هذا النّوع من الإِشكالات الدّيموغرافيّة السياسيّة المرتبطة بالأجيال السياسيّة ودورها المحدّد في عمليّات الانتقال السياسيّ من محطّة سياسيّة إلى أخرى، قد عاشته الجزائر بصفة جليّة عند اندلاع ثورة التّحرير في بداية الخمسينيّاتِ من القرن الماضي. لقد قام جيل الفعل الثّوريّ

المباشر (۱) والحسم العسكري للمسألة الوطنيّة بقيادة الشّباب، وتحديدًا مجموعة الـ٢٦(١)، الّتي كانت وراء تأسيس جبهة التّحرير – وانطلاق العمل المُسلّح في عام ١٩٥٤. لقد كان ذلك الحَرَاكُ انقلابًا فعليًّا على الجيل الأب، الذي كان يمثّله زعيم الحركة الوطنيّة مصالي الحاج، وجيله من أبناء الحركة الّذين ناضلوا من أجل الاستقلال الوطنيّ بدءًا من عشرينيّات القرن الماضي، عن طريق الحزب السّياسيّ وأدوات اللُّعبة السّياسيّة، كالانتخابات الّتي جرت بُعيد الحرب العالميّة النّانية على وجه التّحديد (١).

إنّ أوّلَ صراع أجيال شهدته الجزائرُ هو الّذي وقع بين جيل الآباء المؤسّسين للحركة الوطنيّة، وجيل الفعل الثوري المباشر الأصغر منه سنًا، حيث اتّهم هذا الجيل الأوّل بمهادنة الحالة الاستعماريّة، وعدم قيامه بالقطيعة الّتي يفرضها الكفاح المسلّح الّذي بادر به الأخيرُ (أي جيل الفعل الثّوري) في أوّل تشرين الثاني / نوفمبر من عام ١٩٥٤ ضدّ الاستعمار الفرنسيّ (١٠). أثر هذا الصرّاع بين الجيلين بصورة واضحة في محتوى الفكرة السّياسيّة الوطنيّة، إذ أُدمج فيها كثير من المقولات الّتي أفرزها هذا الصرّاع، لتتحوّل أثناء الثّورة وبعد الاستقلال إلى "ثقافة سياسيّة وطنيّة". من تلك المقولات: رفضُ زعامة الفرد، وتفضيلُ القيادة السياسيّة الجماعيّة، وأولويّةُ الشّعب على النّخبة. وللتّذكير؛ فقد وصلت معاداةُ النّخبة إلى حدودها القُصوى في أثناء ثورة التّحرير في بعض الولايات. ومن تجلّيات الصرّاع كذلك؛ سيطرةُ العسكريّ على السياسيّ، ولفكريّ العلنيّ لصالح التّسويات الشّخصيّة والشائليّة المبنيّة على موازين القُوى المؤقّتة. هذه وتلك؛ جميعُها كانت من إفرازات هذه المرحلة المؤسّسة في تاريخ الوطنيّة الجزائريّة ومحتواها الفكريّ.

بالعودة إلى موضوع الانتقال السياسيّ وعلاقاته بالأجيال السياسيّة في الحالة الجزائريّة الرّاهنة، يمكننا القول إنّ تحليلًا أعمقَ لخصائصِ كُلِّ جيل، ولشروطِ عمليّة الانتقال المرتبطة بكُلّ سيناريو، سيُفيدنا أكثر في فهم

Benjamin stora, Messali Hadj: Pionnier du nationalisme algérien, (Paris, éd. Hachette, 2004).

٥

تمثّله الوجوه الّتي نظّمت اجتماع مجموعة الـ ٢٢ الّذي أعلن فيه عن ثورة التّحرير في تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٥٤ . من أعضاء تلك المجموعة؛ محمد بوضياف، كريم بلقاسم، ديدوش مراد، العربيّ بن المهيدي. وهناك شخصيات لم تحضر الاجتماع بسبب وجودها في الخارج، مثل: حسين آيت أحمد و أحمد بن بلة.

[^] نشبت أزمة في "حركة انتصار الحريات الديمقر اطية" (حزب الشعب سابقا)، وعرفت أوجها خلال مؤتمر الحزب الثاني في نيسان / أبريل ١٩٥٣، وبرز الصراع بين اللجنة المركزية للحزب ورئيسه مصالي الحاج وأتباعه فسمّي صراع المركزيين والمصاليين. ووقفت مجموعة من المناضلين الذين كانوا يؤمنون بالحلّ العسكري لتحقيق الاستقلال على الحياد في هذا الصّراع، وقرّروا تجاوز الجمود الذي سبّبه هذا الصّراع وعقدوا اجتماعا ضمّ ٢٢ منهم، قرّروا فيه التحضير لتفجير الثورة.

^{*} يمكن العودة إلى الكثير من المورّخين الجزائريين الذين تحدّثوا عن هذه المرحلة من تاريخ الحركة الوطنيّة كمحمد حربي أو محفوظ قداش. ' لم يبق هذا الصّراع سياسيًّا فحسب، فقد تحوّل بعد الإعلان عن النّورة إلى مواجهات مسلّحة بين الطّرفين على الأرض الفرنسيّة خصوصًا، والّتي كان أنصار مصالى حاضرين فيها بقوّة للمزيد من التّفاصيل انظر:

هذا الانتقال على الطّريقة الجزائريّة الّذي كثر الحديثُ عنه بدءًا من كانون الثّاني / يناير ٢٠١١، وما تزامن مع أحداثِ عاشتها الجزائر وشهدها العالم العربيّ بتجلّياتِ مُختلفة خلال هذه الفترة (١١).

٢. الجيل الأوّل: جيل الثّورة ويناء الدّولة الوطنيّة

ارتبط هذا الجيلُ بأكبر إنجازٍ سياسيّ في تاريخ الجزائر المعاصر، وهو تحقيق الاستقلال وبناءُ الدّولة الوطنية. بهذا المعنى؛ فإنّ ما أسماه كارل منهايم "اللّحظة الجيليّة" لهذا الجيل، قصد به إنجازات هذا الجيل مع الحركة الوطنيّة وثورة التّحرير، وبعدها بناء الدّولة الوطنيّة وتسييرها لمدّة طويلة. لقد عمّرَ هذا الجيلُ طويلًا من النّاحية السّياسيّة، وعاش لحظاتٍ مفصليّةً في تاريخ الجزائر السّياسيّ. فهو جيلٌ سياسيِّ بأتم معنى الكلمة.

تربّى الجيل الأوّلُ وعاش اللّحظة الوطنيّة سياسيًا، حيث أنشأ الأحزاب السّياسيّة الوطنيّة قبل حرب التّحرير، ثمّ ما لبِث أن تخلّى عنها بعد ما تبيّن له أنّ الحالة الاستعماريّة الاستيطانيّة الّتي تعيشها الجزائر، لا يمكن القضاء عليها بالعمل السّياسيّ السّلميّ وآليّة الانتخابات؛ فكان قراره اللّجوء إلى الكفاح العسكريّ. وعاش هذا الجيلُ في أحضان الفكرة الوطنيّة بكلً خصائصها الجزائريّة المعروفة ومراحل تَشَكُلها التّاريخيّ. فقد عرفت الحركة الوطنيّة المرحلة العماليّة في بدايتها الأولى في مطلع القرن الماضي، عندما أسس في باريس أوّل حزبٍ سياسيّ استقلاليّ باسم "نجم شمال أفريقيا" في عام ١٩٢٦. واتّخذ ذلك الحزب من العمّال المهاجرين قاعدة رئيسة له. وتميّز في مرحلته الأولى، بالتقارب الفكريّ والتنظيميّ مع الحزب الشّيوعيّ الفرنسيّ. وشهدت الحركة الوطنيّة –فيما بعد – انتشارًا شعبيًا داخل الجزائر نفسها، بدءًا من نهاية ثلاثينيّات القرن الماضي؛ واتسمت بسيطرة القُوى الشّعبيّة الرّيفيّة، وبعض القُوى المدنيّة الشّعبيّة – بما فيها البرجوازيّة الصغيرة الصّاعدة على كتف الحركة الوطنيّة – فكرًا وممارسةً (۱۹).

Mohamed Harbi, *Aux origines du fln :, le populisme révolutionnaire en Algérie*, (Paris : Christian Bourgois, 1975). Mohamed Harbi, *Le FLN : mirage et réalité, des origines a la prise du pouvoir 1975/62*, (Alger : éd. NAQD/ENAL,1993).

أ في الحقيقة؛ ليس هناك إجماع في الجزائر - حتى بعد أحداث كانون الثاني / يناير ٢٠١١ - على ضرورة الانتقال إلى نظام سياسي آخر. فبعض القوى السياسية الرسمية، كقيادة التجمع الوطني الديمقراطي، ترى أنّ الجزائر أنجزت انتقالها من الأحادية إلى التّعَدُّديَّة في عام ١٩٨٨، وبالتالي؛ فهي ليست في حاجة إلى انتقال ثان، فالجزائر فيها أحزاب وانتخابات دورية وفيها إعلام مستقلّ. لذا فهي ليست مطالبة بإنجاز عملية انتقال.
 ٢٠ يمكن العودة إلى مؤلفات المؤرّخ محمد حربي:

على الرّغم من سيطرة الفكرة الوطنيّة بمحتواها الشّعبيّ، وبكلّ ما تميّزت به من محتوّى عَقَدِيّ ومن ممارسات، فقد شهدت بعضًا من التّتوُّع الفكريّ والسّياسيّ الّذي أثراها به التيّارُ الدينيّ الإصلاحيّ، مُمثّلًا في جمعيّة العلماء المسلمين. وقد ركّز هذا التيّار على بعض القضايا المرتبطة بالهُويّة الثقّافيّة والدّين (۱۱). أضف إلى ذلك تأثير التيّارين اللّيبراليّ (۱۱) والشيوعيّ (۱۱) بدرجةٍ أقل - داخلَ الفضاءاتِ الحضريّة، وإسهام بعض المؤسسات في ازدياد درجة الوعي، كالنّقابات (۱۱) والأحزاب. وأسهمت أمكنة العمل والسّكن الّتي كانت بدرجاتٍ مُتفاوتة - مجالًا لنوعٍ من التّعايش بين بعض الجزائريّين والأوروبيّين، في ما سمّته المُؤرّخةُ الفرنسيّة آني ري غولدزايغر "عالم الاحتكاك هذه؛ يُمكن ملامستُها بوضوحٍ، في الكثير من السّير الذّاتيّة والعائليّة للجزائريّين والأوروبيّين في الفضاءات الحضريّة الكبيرة والمتوسّطة (۱۱). في الكثير من المرّجُ بعضَ التّوّع والثّراء للوطنيّة الجزائريّة، لتغدو بذلك الوعاءَ الرّئيس لممارسة الجيل الأوّل الذي استمرً إلى مرحلة ما بعد الاستقلال.

لقد عرفت "الوطنيّة" انكماشًا وسيطرةً للطّرحِ المحافظ، مع تقدُّم سِنِّ الفئات الحاكمة وسيطرة القُوى الرّيفيّة، في مرحلة تجربة تسيير الدّولة الوطنيّة، بكُلِّ ما رافقَها من تَآكُلٍ فكريّ وسياسيّ، نتيجةَ التسيير الأُحاديّ الّذي جرى بمُوجبه تَبني الدّولة الوطنيّة بعد الاستقلال مباشرة؛ مُقارنة بمرحلة البدايات الأولى للصّعود والارتقاء، النّي استلهمت فيها الوطنيّة الجزائريّة الكثير من فكر الحركة العُمّاليّة والنّقابيّة الفرنسيّة، الأمر الّذي أتاح

الجزائريّة، بعد الاستقلال على وجه التحديد.

^{&#}x27; التيّار الليبرالي الذي مثّلته الأحزاب التي أسسها فرحات عباس منذ ثلاثينيّات القرن الماضي، كان تأثيره الفكريّ والسّياسيّ ضعيفًا بعد الاستقلال على وجه التحديد، لنخبويّته وعدم وجود عمق شعبيّ له، خلال هذه الفترة التي سيطرت فيها نيّارات سياسيّة وطنيّة وشعبويّة، لدرجة التحاق كلّ العناصر السياسيّة الممثّلة له بالحكّام الذين سيطرواً على مقاليد الأمور، بداية بالتحاق فرحات عباس بمجموعة تلمسان التي حسمت النزاع الذي نشب على الحكم مباشرة بعد الاستقلال في ١٩٦٢ وبعده على بومنجل، وحتى قايد أحمد لاحقًا إنّ العمل السّياسيّ مع الانظمة، لم يمنع هذه العناصر من التّعبير عن عدم رضاها عن السّياسات والمواقف، ممّا جعل أغلبيّتها يبتعد عن النظام ويعبّر عن معارضته في مراحلّ مختلفة وبأشكال متنوّعة. فقد استقال عباس من رئاسة المجلس التشريعي في ١٩٦٣، وابتعد بومنجل عن السّياسيّة، وانشق قايد أحمد عن بومدين في بداية السبعينيّات من القرن الماضي.

المستوى العمّالي ويتون المحافظة على استقلاليتهم السّياسيّة والتنظيميّة حتى في أثناء ثورة التّحرير، من دون نجاح كبير. وكان الشّيوعيّون مؤثّرين على المستوى العمّالي والنّقابيّ ولدى بعض الفئات الوسطى الحضريّة المتعلّمة بعد الاستقلال. وأمدّوا الدّولة الوطنيّة بالكثير من الكوادر، فكان لديهم حضور فعليّ على مستوى بعض القطاعات (النّقابة، الجامعة والإعلام، على سبيل المثال) خلال فترة الأحاديّة الحزبية التي اتّخذوا فيها مواقف مؤيّدة عمومًا للنظام السياسيّ، على الرّغم من بعض النقد أحيانا. لكن حضور الشيوعيّين كان أكثر تأثيرًا وقوّةً خلال مرحلة السّريّة والأحاديّة، وضعف كثيرًا بعدَ الإعلان عن التّعدُديّة السّياسيّة في الجزائر في وقت كان المعسكر الاشتراكيّ ينهار.

Nacer Djabi, kaidi lakhdar: Une histoire du syndicalisme algérien; entretiens, (Paris: Chihab éditions, 2005).
 Annie Rey-Goldzeiguer, « le monde du contacte: une fausse charnière », In: Aux origines de la guerre d Algérie 1940/45. de mers –el kebir aux massacres du nord –constantinois, (Alger: casbah éditions Alger 2002), pp. 75/102.
 René Galissot (sous la direction), Algérie: Engagements sociaux et question nationale: De la colonisation à l'indépendance de 1830 à 1962 Dictionnaire biographique du mouvement ouvrier: Maghreb, (Paris, les éditions de l'atelier le maitron, 2006).

لأجيالٍ عديدةٍ من العُمّال الجزائريّين أن يحتكُوا بها وبقُوَّة، ليبادروا بتكوين أوّل حزب استقلاليّ وطنيّ، ومركزيّةٍ نقابيّة (اتّحاد نقابات) لاحقًا (١٩).

من جهةٍ أخرى، كانت الحركةُ الوطنيّة الجزائريّة على احتكاكٍ يوميّ بمحيطها المغاربيّ، فهي في حالة صعودٍ سمح لها بالاستفادة من مكامن القوّة داخل هذا الفضاء الفكريّ والسّياسيّ الّذي أغنته بتجربتها الخاصّة. لكن، سرعان ما تقلّص ذاك الاحتكاكُ إلى حدوده الدّنيا بعد الاستقلال وسيطرة النُّخب الوطنيّة على الدّولة في بُلدان المغرب العربيّ. وهكذا؛ سارعت ذاتُ النُّخب إلى الوقوف في وجه البناء المغاربيّ الّذي يبقى أحد الحلول الممكنة والمطلوبة، لتجاوز كبوات الدّولة الوطنيّة على أكثر من صعيد (٢٠).

على الرّغم من انتماء جيل الحركة الوطنيّة والاستقلال إلى الأصول الشّعبيّة والرّيفيّة الغالبة، إلّا أنّ مواقعة الطّبقيّة شهدت تحوّلاتٍ جِدِيّة بعد الاستقلال، نظرًا لارتباط هذا الجيل المُباشر بتسيير الدّولة الوطنيّة الرّيعيّة، النّي بادرت بتبنّي نموذج تتمية اعتمد على دور مركزيّ للقطاع العموميّ التّابع للدّولة، ممّا جعل هذا الجيل على رأس المستفيدين من التّسيير الرّيعيّ للدّولة الوطنيّة واقتصادها المسيّر مركزيًّا. لقد ظهرت على هذا الجيل الكثير من علامات الثّراء واليُسر، وهو ابن الأصول الشّعبيّة الّذي لم يُسعفه الاستعمارُ الاستيطانيّ بمستوًى تعليميّ متميِّز، فاكتفى بقسطٍ متواضع منه.

ذاك جيلً ارتبط مصيرُه بمصير الدّولة الوطنيّة الّتي احتكر تسبيرَها وتحكّمَ في قرارها المركزيّ السّياسيّ. لذا فقد كانت نظرةُ الجيلَيْن التّاليَين له أكثرَ إيجابيّةً، عندما كانت تَجرِبةُ تسيير الدّولة الوطنيّة متصاعدةً، ولاسيّما في مراحلها الأولى بُعيدَ الاستقلال، ثمّ لأكثر من عقدين على الأقلّ، وقبل ذلك مع تجربة ثورة التّحرير. لكنّ هذه الصورة عادت لتتأثّر سلبًا بصعوبات تسيير الدّولة الوطنيّة الّتي استفحلت، بدءًا من النّصف الثّاني للثّمانينيّات من القرن الماضي.

¹⁹ على الرّغم من التّجربَة النّقابيّة الواسعة للجزائريّين - مقارنةً بالمغاربة والتونسيّين - فقد تأخّر تكوين نقابات وطنيّة جزائريّة حتّى النصف التّاني من خمسينيّات القرن الماضى، بسبب أزمة الحركة الوطنيّة.

 ^{&#}x27; حزب نجم شمال أفريقيا الذي تكون في فرنسا في النصف الثاني من العشرينيات، كان في الأصل حزبًا مغاربيًا بقيادته وهياكله وقواعده، قبل أن يسيطر عليه الجزائريون، نظرًا لحضورهم القوي في فرنسا. لكن هذا لم يمنع من استمرار الاحتكاك المباشر بين أبناء المغرب العربي داخل الحركة العمالية والطّلابية والحركة الوطنية بصفة عامة، إلى أن استقلت بلدان المغرب وسيطرت وطنيّات منغلقة على الدولة الوطنية في الدّول الثّلاث.

استمرّ الجيل الأوّل – الرّيفيّ الأصل، والّذي دخل المدينة بعد الاستقلال (٢١) – في تبنّي خطابه الوطنيّ ذي الطّابع المحافظ المنغلق على ذاته، على الرّغم من كلّ التّحوّلات الّتي شهدها المجتمع الجزائريّ وقادَتْها الدّولة الوطنيّة الّتي كان على رأسها ذات الجيل. لقد فرض هذا الجيل الأُحاديّة السّياسيّة، وإن كان له سابق تجربة حزبيّة تعدديّةٍ قصيرةٍ قبلَ ثورةِ التّحرير، خرج منها كافرًا بكلّ ما له صلة بها. وحتى عندما تخلّى عن تجربة التسيير العموميّ للاقتصاد، استمرّ في رفضه للتعدديّة التي كادت تساوي لديه، الفرقة والاختلاف، وبالتّالي الضّعف، كما تعلم من تجربته كابنٍ للتّجربة الوطنيّة الشعبويّة ذات البعد الريفيّ، ومن تجربة الأجيال التي سبقته.

قاد هذا الجيل ثورة التّحرير، وتولّى مقاليدَ السُّلطة وهو في سنِّ صغيرة (٢١)، ليستمرّ طويلًا على رأسها، من دون التقكير في الابتعاد عنها، اقتناعًا منه – ربما – بأنّ الأجيال اللّحقة لا تزالُ قاصرةً، ولا تملك تلك الشّرعيّة الثّوريّة الّتي بنى عليها هو مجدَه السّياسيّ (٢١). فهي في نظره أجيالٌ مشكوكٌ في ولائها للجزائر، ولا تملك التّجربة الّتي تسمحُ لها بالوصول إلى مراكز القرار السّياسيّ، كما كانت الحالُ معه. أجيالٌ تبقى في نظر الجيل الأوّل – صغيرةً في السّنّ والتّجربة، مهما كان عمرُها البيولوجيّ الفعليّ. فجيل التّحرير؛ مثل الأب تمامًا، فهو يَظلُّ يرى أبناءَه أطفالًا، مهما بلغت بهم السّنّ، وتتوّعت تجربتُهم، وزاد علمُهم وتأهيلُهم.

٣. جيل الاستقلال والبناء الوطنيّ

هو الجيلُ الثّاني ضمن هذا التّسلسل الّذي صنّفنا على أساسه الأجيالَ السياسيّة في الجزائر. إنّه الجيلُ الّذي وُلِد في السّنوات الأخيرة لثورة التّحرير والبدايات الأولى للاستقلال. استفاد هذا الجيلُ من فرص التّعليم الكبيرة الّتي وفّرتها الدّولة الوطنيّة بعد الاستقلال^(٢٤)، ثمّ دخل المدينة وهو صغيرُ السّنّ، أو قد يكون وُلد

أنه على سبيل المثال، كان الرئيس الحالي عبد العزيز بوتفليقة وزيرًا للشَّباب في سنة ١٩٦٢، مباشرة بعد الاستقلال وعُمرُه لم يتجاوز الخامسة والعشرين (من مواليد ١٩٣٧) . وحدث ذات الأمر للرئيس بومدين الَّذي وصل إلى رئاسة الحكومة ووزارة الدفاع وقبلَهما قيادة الأركان، وهو لم يتجاوز الثلاثين من المُوه

^{٢٢} من ذلك -مثلًا- أنّ الدستور الجزائريّ في مادّته ٧٣، يشترط على كلّ مترشّح لرئاسة الجمهوريّة ، أن يثبت مشاركتّه في ثورة الأوّل من تشرين الثّاني / نوفمبر ١٩٥٤، إذا كان مولودًا قبل تموز / يوليو ١٩٤٢؛ وأن يثبت عدم تورّط أبويه في أعمالٍ ضدّ الثورة إذا كان مولودًا بعد تموز / يوليو ١٩٤٢. تلك شروط تبيّن مدى الأهميّة الممنوحة للمشاركة في ثورة التّحرير كمقياس لتحديد مواقف الأجيال.

^{٢٠} تحسن انتشار التّعليم نسبيًا حتّى خلال المراحل الأخيرة من الفترة الاستعماريّة، في المدن الكبرى تحديدًا، ممّا جعل الاستفادة منه أقدم بالنسبة إلى هذا الجبل.

فيها، ممّا جعلَه أكثرَ تكيُّفًا وقَبولًا لها من الجيل الأوّل الّذي استمرّ في عدائه للمدينة وقيمها وسلوكها (٢٥). غير أنّ المدينة ستبقى الفضاء الأساسيّ الّذي يُظهر عيوب تسيير هذا الجيل المتحكّم في دواليب السلطة، ومكان المواجهة الأساسيّ مع الجيل الثّالث والحركات الاحتجاجيّة الّتي نظّمها وقادها ضدّ مؤسّسات هذا الجيل الحاكم، بدءًا من النّصف الثّاني للثّمانينيّات على وجه الخصوص؛ بعد أن بدأت علامات الإعياء تظهر على المشروع الاقتصاديّ والاجتماعيّ للدّولة الوطنيّة، الّتي يسيطر عليها هذا الجيلُ المتمسّكُ بشرعيّته الثوريّة ومزاياها الرّيعيّة.

هذا الجيل النّاني هو من تكلّف بالتّسيير الاقتصاديّ والاجتماعيّ، تحت سيطرة الجيل الأوّل الذي حوّله إلى "جيلٍ من الكَتَبة" مكلّفًا بتنفيذ تعليماته، حتّى وإن استفاد جزئيًّا من هذا التّسيير للشّأن الاقتصاديّ على وجه الخصوص. وقد سمح التّأهيلُ العلميّ للجيل الثّاني والشّهاداتُ التي يحملها بتسيير المؤسّسات الاقتصاديّة والاجتماعيّة، من دون الوصول إلى مركز القرار السياسيّ، الّذي لم يزل مُحتكرًا لجيل الثّورة. من هذا المنظار؛ فإنّ الجيل الثّاني يحتلّ موقعًا مفصليًّا بين الجيلين الأوّل والثّالث، فهو في علاقةٍ يوميّةٍ ومؤسّساتيّةٍ مع الجيل الأوّل الذي "يشتغل لصالحه" مُنقَدًّا في الميادين الاقتصاديّة والاجتماعيّة، كما أنّه في علاقةٍ مُباشِرةٍ ويوميّة مع الجيل الثّالث الذي يقوم "بتسييره" داخلَ المؤسّسات الاقتصاديّة الاجتماعيّة والخدماتيّة الموجود على رأسها، كالجامعة والمصنع وعالم الشّغل عمومًا. ممّا يعني أنّه الجيل الوحيد الّذي يملك علاقاتٍ مباشرة، عم الجيلين الآخرين. فهو من هذه الزّاوية، جيلُ تجسيرِ بين الأجيال في المجتمع الجزائريّ.

الجيل الثاني، هو جيلً عرف العمل السياسي -الحزبي، بأشكالٍ مختلفة، لكن بشكل محدود؛ فقد غامر بعض ممثّلي هذا الجيل بالانخراط في العمل الحزبيّ السرّي في أثناء فترة الأُحاديّة داخل التنظيمات السياسيّة المختلفة: اليساريَّة والأمازيغيَّة والدِّينيّة لاحقًا. وانتهت تجربتُه الحزبيّة الرّسميّة -كجيلٍ - بالضُّمُور، خاصتةً لدى الفئات المؤهّلة الحاضرة في عالم الشُغل والتسيير، الذي استمرّ في التعامل اليوميّ باللُّغة الفرنسيَّة في مكان العمل وخارجه. وهي الفئات التي عُرف عنها عدمُ الاهتمام بالعمل السياسيّ الرَّسميّ، نتيجة تقسيم العمل السياسيّ والتسييريّ في التّجربة السياسيّة الجزائريّة. إنّه تقسيمٌ جَعل فئاتِ واسعةً من هذا العمل السياسيّ والتسييريّ في التّجربة السياسيّة الجزائريّة. إنّه تقسيمٌ جَعل فئاتِ واسعةً من هذا

^{&#}x27; الدّراسات الّتي قمنا بها لظاهرة الانتخابات السياسيّة في الجزائر في فترة التّعَدُّدِيَّة على وجه الخصوص، تبيّن بوضوح أنّ السّياسيّ الجزائريّ من أبناء الجيل الأوّل الحاكم، وإن كان يسكن المدينة الّتي دخلها مبكّرًا، إلّا أنّه لا يزال يرفض النّرشّح فيها، ويفضّل عليها قريته أو مدينته الصغيرة الّتي غادرها منذ فترة طويلة. ممّا يجعله كاننًا سياسيًا من دون قاعدة شعبيّة فعليّة. إنّه وضع يفسّر النتائج الكارثيّة لهذا النوع من النّخب في الانتخابات الّتي غامرت بالذّخول فيها. انظر لمزيد من التّفاصيل:

عبد الناصر جابي، الانتخابات الدّولة والمجتمع، (الجزائر: دار القصبة، ١٩٩٩).

الجيل – الذي تنطبق عليه مواصفاتُ الطبقة الوسطى وفئاتها العليا الأجيرة المتعلِّمة – تبتعد عن العمل السياسيّ الرّسميّ الذي مُنحَ لفئاتٍ أخرى تكفّلت بتأطير التّجربة السياسيّة المنوطة بالحزب السياسيّ في حالة الأُحاديَّة، كما كان الشّأنُ مع المعلّمين والموظّفين –عمومًا – الّذين أدَّوا دور الوسيط بين الفئات الشعبيّة والجيل الحاكم ومؤسساته، لتمكّنهم من اللُّغة العربيّة الّتي مُنحت أدوارًا سياسيّةً وأيديولوجيّةً واضحةً، بخلاف اللُّغةِ الفرنسيّة الّتي اتُخذت لغة عملٍ وتسيير (٢٦).

ولا يمكننا فهمُ الاختلاف في الأدوار والمواقع لدى هذا الجيل، إلّا بالعودة إلى الانقسام اللُّغويّ الذي ميّز هذه الفئاتِ الوسطى، الّتي تُعَدُّ المُكوِّنَ الاجتماعيَّ الأساس لأبناء هذا الجيل. انقسام يؤدّي إلى ما أسميناه بالقطاعيّة الّتي تُميّز تسيير الدّولة في الجزائر، مع كلِّ ما يترتّب عليها من تداعيات؛ كنقص شرعيّتها في عيون النّخب المتصارعة والمواطنين، والصِّراع الّذي يقعُ بين النَّخب المُتمترسة داخل قطاعاتها المختلفة المُقسَّمة بين النُّخب على أساس لُغَويّ وثقافيّ (۲۷).

على الرّغم من التتوّع في هذه التّجربة السّياسيّة على المستويات التّنظيميّة لدى هذا الجيل، إلّا أنّه ظلّ قريبًا من الفكرة الوطنيَّة السّياسيّة جدًّا، حتّى وإن لبست في بعض الأحيان ثوبًا يساريًّا أو دينيًّا، أو حتّى ثقافيًّا أمازيغيًّا. إنّ الوطنيّة الّتي ارتبطت لدى هذا الجيل ببناء وتسبير المؤسّسات الاقتصاديّة والاجتماعيّة الموكلة اليه في إطار هذا التقسيم الجيليّ للعمل الّذي يميِّز الحالة الجزائريّة؛ هي تجربة مهنيّة وسياسيّة متنوّعة، لم تتعد بهذا الجيل فكريًّا عن الجيل الأوّل، بحيث لم تخطر له على بال القطيعة معه! وهو يستطيع أن ينتقد تسييره السياسيّ، لكنّه لا يثور ضدّه ولا يفكّر في مواجهته. فهذا الجيل لم يتعوّد على المبادرة السياسيّة المستقلّة، بعد أن تربّى على القبول بالأدوار الممنوحة له من جيل السّلطة، وارتضاها لمدّة طويلة داخل مؤسّسات التّشئة الّتي مرّ بها أو حتّى سايرها، انطلاقًا من المدرسة، ثمّ المصنع والمؤسّسة الخدماتيّة.

الخياراتُ السياسيّة والاقتصاديّة الّتي تبنّاها الجيل الحاكم بعد الإعلان عن التّحوّل إلى التّعدُديّة واقتصاد السّوق في بداية التسعينيّات من القرن الماضي، كان لها الأثر الكبير في مواقع هذا الجيل من الطّبقة

^{٢٦} الحالة الاستعمارية الاستيطانية في الجزائر وما أنتجته من تشوّهات، منحت اللغة العربية مكانة اللغة المقتسة الّتي تختص بالدّيني والأيديولوجيّ، في حين منحت اللغة الفرنسية مكانة لغة العمل والعصرنة. مكانتان مختلفتان احتلتهما اللغتان وأسقطتا على الفنتين المتعاملتين بهما، فكان من حظّ المتعلم المنعرّب كلُّ ما له علاقة بالدّين والأيديولوجيا والسياسة لاحقًا - خلال الفترة الأحاديّة، في حين تولّى المتعلّم بالفرنسيّة التسيير والإدارة. وهكذا جاءت نتيجة هذا التقسيم مؤسّسيّة الطّابّع، ليسيطر المعلّم والموظّف على حزب جبهة التّحرير الّذي ظلّ بعيدًا عن الإطار المُسيّر والتّكنوقراطيّ.

"لمزيد من التفاصيل عن انقسام النّخب وقطاعيّة الدّولة في الجزائر، انظر:

ناصر جابي ، الجزائر: الدولة والنُّخب والحركات الاجتماعيّة، (الجزائر: دار الشهاب، ۲۰۰۸).

الوسطى، الذي ارتبط بالدّولة الوطنيّة ومؤسّساتها لوقت طويل؛ فقد فقدت الكثير من الفئات التّكنوقراطيّة الّتي كانت على ارتبطت مهنيًا بالقطاع العموميّ (الحكوميّ)، العديد من المواقع الاقتصاديّة والاجتماعيّة الّتي كانت على رأسها. وقد حدث الأمر ذاته للفئات المرتبطة ببيروقراطيّة الدّولة وجهازها الخدماتيّ، والّتي تدهورت وضعيّتُها الاقتصاديّة الاجتماعيّة والرّمزيّة. هذه الأوضاع الجديدة لم تجعل أبناء هذا الجيل يلجؤون إلى القطيعة مع منطق النّسيير السيّباسيّ للجيل الأوّل؛ إذ أقصى ما قاموا به، هو التوجّه نحو العمل النّقابيّ المطلبيّ للنّقابات المستقلّة الّتي ظهرت بعد الإعلان عن التّعدُديّة النّقابيّة (٢٨)، أو تأسيس أحزاب سياسيّة، لم تخرج عن الإطار العامّ المرسوم لها داخل اللّعبة السّياسيّة التّعدُديّة الرّسميّة، بكلّ عيوبها المعروفة، كتزوير الانتخابات، وغلق السّاحة الإعلاميَّة، وتقييد العمل الحزبيّ والجمعويّ (٢٩).

كانت هذه مسارات الغئات من الجيل الثّاني الّتي تدهورت وضعيّتها الاقتصاديّة والاجتماعيّة جرّاء الخيارات السّياسيّة الّتي تبنّاها الجيل الأوّل. في حين توجّهت شرائح أخرى من أبناء هذا الجيل، لتبنّي خياراتٍ ليبيراليّة واضحة، بمن في ذلك الكثير من العناصر ذات التّجربة اليساريّة القديمة، بعد أن استفادت من فتح المجالات الاقتصاديّة، وحسّنت مواقعها الاجتماعيّة اعتمادًا على تجربتها في القطاع العامّ، وما وفّرته لها من رأسمال علاقات، داخل الجزائر وخارجها. وقامت هذه الفئات بعمليّة تحويلٍ ماليّ وعلائقيّ من القطاع العامّ إلى القطاع الخاصّ الذي أصبحت مالكةً له ومسيّرةً، بالاعتماد على إستراتيجيّةِ عائليّة واضحة المعالم (٢٠٠).

قد يكون لتتوّع المواقع والتوجّهات لدى أبناء هذا الجيل، دوره في إحجامهم عن إعادة النّظر في شرعيّة الجيل الأوّل ومؤسّساته ومواجهتها سياسيًا، إلا أنّ هذا الموقف لا بُدَّ من البحث عن تفسيراتٍ له في عمليّة التّشئة السّياسيّة الّتي تعرّض لها هذا الجيل، وفي نظرته لذاته وللجيل الأوّل: جيل الثّورة وبناء الدّولة الوطنيّة. فهو جيلٌ يعيشُ حالة تذمُّر ومعاناةٍ فرديّةٍ وجماعيّةٍ، نفسيّةٍ واجتماعيّة، لا تسمحُ له بالثّورة على جيل الآباء بحالٍ

أنشِئَت أغلب النقابات المستقلة الفاعلة التي ظهرت بعد إقرار التعدُّديَّة النقابيّة في عام ١٩٩٠، في قطاع الوظيفة العموميّة (الصنّحة والتعليم والإدارة). ولجأت هذه النقابات إلى شنّ إضرابات طويلة، من أجل مطالب ماديّة في الغالب، تأتي على رأسها قضيّة الأجور.

ولجأتُ هذه النَّقابات إلى شنّ إضرابات طويلَّة، من أجل مطالب ماديّة في الغاَّلب، تأتي على رأسها قضيّة الأَجور. ^{٢١} هذا ما جعل الكثير من الأطراف السّياسيّة (أحزابًا وشخصيّات) تركّز خلال مرحلة النَّشاور السّياسيّ الّتي بادر بها النّظام في حزيران / يونيو ٢٠١٠على أهميّة تحسين الأداء اليوميّ للمؤسّسات والممارسة اليوميّة للإطار الدّستوريّ والقانونيّ الّذي قال عنه كثير من السياسيين: إنّه غير مطبّق في الواقع، بغضّ النظر عن نقائصه وإيجابيّاته .

^{· َ} تَبَيَّن الملاحظة اليوميَّة المباشرة أَنَ جَزءًا كبيرًا من المؤسَّسات الصّناعية والخدماتيَّة الّتي ظهرت بعد الانفتاح الاقتصاديّ في بداية التَّسعينيّات، كان من ورائها إطارات ومسيّرون كانوا على رأس قطاع النشاط بالقطاع العامّ.

من الأحوال^(٢١). ثمّة أسبابٌ عديدة يمكننا الرّجوع إليها فيما تبقّى من هذه الدّراسة ونحن نتحدّث عن نظرة كُلِّ جيلٍ إلى نفسه وإلى الأجيال الأخرى؛ لكنّ هذا لا يمنعنا من القول إنّ أحدَ أسبابِ أزمة الانتقال السّياسيّ في الجزائر، غالبًا ما يكمئُ في عجز الجيل الثّاني عن مواجهة جيل الآباء الحاكم، إضافة إلى قبوله بالقطاعيّة المميّزة لتسبير الدّولة في الجزائر، لكونه جيلًا تربّى وعاش في ظلّ الانقسام الذي ميّز تَشَكُلَ النُّخَب الّتي هي جزءً مهمّ منه.

٤. الجيل الثَّالث: جيل الفعل المباشر والحركات الاحتجاجيّة

صادف ميلادُ أبناء هذا الجيل السياسيّ بداية ظهور علامات الإعياء الأولى على مشاريع الدّولة الوطنيّة واستفحاله فيما بعد، والّتي تزامنت مع عقد الثمانينيّات من القرن الماضي. وفتح هذا الجيل عينيه على الدّولة الوطنيّة وهي تتخبّط في العديد من المشاكل الاقتصاديّة والاجتماعيّة والسياسيّة، جرّاء الإعياء الّذي بدأ يظهر بوضوحٍ على المؤسسات المركزيّة الّتي اعتمدها النّظام السّياسيّ وعوّل عليها كمؤسساتٍ للتّغيير الاجتماعيّ، مثل المدرسة والمؤسسة الصّناعيّة.

لقد برزت خلال هذه الفترة، علامات الإعياء الذي أصاب هذه المؤسّسات المركزيّة للتّغيير، فزادت نسب البطالة، بما فيها بطالة الجامعيّين والشّبان عمومًا، وزادت نِسَبُ النّسرُب المدرسيّ وبدأ يقلُ التّعويل على المدرسة كمؤسّسة ترقيةٍ اجتماعيّةٍ لدى الفئات الشّعبيّة الّتي استفادت منها في وقتٍ سابقٍ قريب. للمقارنة بين الأجيال؛ يمكننا أن نقول إنّ لحظة الجيل الثّاني كانت لحظة صنعودٍ في بداياتها الأولى، قبل أن يعيش مرحلة الإعياء الّتي عاشها مع الجيل الثّالث من مواقعَ مختلفة، في حين أنّ اللّحظة السّياسيّة للجيل الثّالث، ارتبطت منذ بداياتها بالانكسار في المشروع الوطنيّ؛ ليكون الجيل الشابُ على رأس ضحايا انتكاسة سير المشروع الوطنيّ.

^{١٦} لجأ الكثير من أبناء هذا الجيل إلى الهجرة شبه الجماعية، خاصة عندما تدهورت الأوضاع الأمنية في النَّسعينيّات. وقد هاجر الكثير من أبناء هذا الجيل في سنَّ متقدّمة وفي شروط نفسيّة صعبة؛ أثّرت سلبًا في التوازن النَفسيّ والعائليّ للكثير من أبناء هذا الجيل الذين جرّب البعض منهم اتّجاهات هجرة جديدة على الجزائريّين، نحو كندا وبريطانيا ودول الخليج وأستراليا .

^{٢٢} لمزيدٍ من التَّفاصيل عن هذه الروَّية ، انظر دراستنا: "الجيل والأسطورة السياسيّة أو الأب 'الفاشل' والابن 'القافز'" (الشاطر باللّهجة الجزائريّة)، التي صدرت في شكلها الأوّل ضمن: عبد الناصر جابي، الجزائر من الحركة العمّالية إلى الحركات الاجتماعيّة، (الجزائر، المعهد الوطني للعمل، ١٠٠٢).

وُلد هذا الجيل في المدينة الّتي شهدت هجرة كثيفةً من الجزائريين، بدءًا من السنوات الأولى للاستقلال (٢٣)، لأسبابٍ عدّة يَغلب عليها الطَّابع الاقتصاديّ والاجتماعيّ. لقد كانت التّشئة الأساسيّة لهذا الجيل، داخل أحياء وأرقعة هذه المدينة الّتي تعيش أزمةً مُتَعدّدة الأؤجه: السكن والنقل وصلاحيّة مياه الشُرب والبطالة والعنف وما يتبع ذلك. لقد حملت هذه الأزمات مجتمعة؛ هذا الجيل على الاحتجاج بوصفه وسيلةً للتعبير عن نفسه وعن مطالبه؛ رافضًا الانخراط في المؤسسات الرّسميّة القائمة، أو حتّى تلك الّتي كوّنتها المعارضة لاحقًا (الحزب، والجمعيّة، والنقابة)؛ ومُشكّكًا في الخطاب السياسيّ والإعلاميّ الرّسميّ (٢٤). ليكون الإسلام السياسيّ الجذريّ الاستثناء الوحيد، مُمثّلًا في الجبهة الإسلاميّة للإنقاذ، الّتي ركبت مركب هذه الحركات الاحتجاجيّة لشبّان المدن من أبناء هذا الجيل الّذين بادروا عبرها بطرح قضاياهم الاجتماعيّة والاقتصاديّة. لقد ركبت الجبهة الإسلاميّة الإسلاميّة وفكريّ، حيث استفادت من قوّة عنفوان ركبت الجبهة الإسلاميّة تلك الموجة من دون أيّ عملٍ إصلاحيّ أو فكريّ، حيث استفادت من قوّة عنفوان هذه الحركات في بداياتها الأولى، من دون أن تتمكّن من التّحكّم فيها وتسبيرها خلال فترة الأزمة والاضطراب.

لذا يمكننا القول إنّ الجبهة الإسلاميّة للإنقاذ كانت أقرب إلى منطق الحركات الاحتجاجيّة منها إلى التّنظيم الحزبيّ، ممّا قد يكون عامل تفسير قويًا لفهم انتظام الشّبّان في صفوفها بهذه الكثافة. بخلاف الأحزاب السياسيّة الأخرى، بما فيها الدّينيّة، مثل حركة النّهضة أو حركة مجتمع السّلم (إخوان مسلمون (٢٥٠)) اللّتين لم تتمكّنا من ركوب هذه الحركات الاحتجاجيّة، فضلًا عن الأحزاب اليساريّة الّتي عاشت أزماتها الكبرى خلال هذه المرحلة تحديدًا.

انطلقت تلك الاحتجاجات من الأحياء الشّعبيّة، كما استغلّ المحتجّون أماكن التّجمّعات العامّة، مثل الملاعب والمساجد لاحقًا، لطرح العديد من القضايا بأشكالٍ تعبيريّةٍ قويّة. ظهرت تلك الاحتجاجات في صورة حركات

ُ العلى من المؤشّرات الدّالّة على عزوف الجيل الشّابّ عن الخطاب الرّسميّ والسّياسيّ للجيل الحاكم ، ابتعاده عن قراءة الجرائد والمواضيع السياسيّة، وتفضيله الصحف والصفحات الرّياضيّة؛ مقارنةً بالجيل الثّاني، الّذي لايزال هو المستهلك الأوّل - بل والمنتج الأوّل جزئيًّا - لهذه الوسائط الإعلاميَّة في الحذاذ،

^{٣٢} في المدينة يمكن للعائلة الجزائريّة أن تجد المدرسة القريبة لأبنائها والعمل لرجالها ونسائها، كما يمكن أن تجد ظروف حياة أحسن من حالة الرّيف، خاصة في السنوات الأولى للاستقلال جرّاء التدمير الّذي شهده الرّيف أثناء ثورة التّحرير، وتأخّر انطلاق مشاريع التّنمية بعد الاستقلال، مقارنةً بالمدينة.

[°] اللّتيّار الإخوانيّ في الجزائر، مثله مثل اليسار، تسيطر عليه الفئات الوسطى من أبناء الجيل الثّاني النّذي استفاد من التّعليم العموميّ. وهو يركّز في عمله السّياسيّ، على إستراتيجيّة الدماجيّة وإصلاحيّة، لا يمكنها أن تقرّبه من هذه الحركات الاحتجاجيّة الجذريّة.

خامّ غير مُؤطّرة فعليًا، الأمرُ الّذي جعلها قابلةً لتكرار نفسها في المطالبة والتّعبير، من دون أن تصل إلى تحقيق غاياتها.

فشلت أوّل مشاركة سياسيّة للشّبّان بعد الاستقلال في تحقيق أهداف مقبولة، بعد أن أوصلتها التيّارات الدّينيّة الجذريّة إلى مأزقٍ فعليّ، جرّاء العنف المسلّح الّذي مارسته ضدّ الدّولة الوطنيّة والجيل الّذي يسيطر عليها. وبعد توقّف العمليّات الإرهابيّة الكبيرة الّتي ميّزت عقد التّسعينيّات، تولّدت منذ بداية الألفيّة الجديدة، أشكال تعبيريّة يغلب عليها الطّابع الفرديّ لدى أبناء هذا الجيل الشابّ، ولا سيّما بعد استفحال الشّعور بصعوبة التّغبير الجماعيّ في الجزائر، فزادت نسب الانتحار في فئة الشّباب، وكثرت معدّلات استهلاك المُخدِّرات وارتفعت موجة الهجرة غير الشرعيّة نحو أوروبا، بل ظهرت موجاتُ تديّنِ سلفيّ جديدة مُركِّزةً على نوعٍ من الخلاص الفرديّ، خلاقًا للحلِّ الجماعيّ الّذي كان ينادي به الإسلام السّياسيّ الجذريّ في بداية التّسعينيّات ونهاية الثّمانينيّات الله الشّمانينيّات الله السّمانية الشّمانينيّات (٢٠٠).

إنّ الّذي يعنينا في هذا التّحليل بشكلٍ خاصً؛ هو أنّ هذا الجيل قُدِّر له أن يُجرِّب الحركاتِ الاحتجاجية وما تزامن معها من عنفٍ فرديّ وجماعيّ ضدّ جيل الثّورة المسيطر سياسيًّا على مراكز القرار السّياسيّ، وفي هذا دليلٌ واضحٌ على عدم رضى جيل الشّباب عن الجيل المسيطر على مقاليد الأمور السّياسيّة في الجزائر، وما صاحب ذلك من نظرةٍ سلبيّة تعمّقت أكثر بسبب هذه المواجهة الّتي عرفتها الجزائر خلال عقدٍ كامل، زادت في أثنائه حِدَّةُ الفُروق الاجتماعيّة ونِسَبُ الفساد، بجميع أشكاله، وبسرعةٍ مذهلةٍ، في مجتمعٍ آمن طويلًا بالمساواةِ بين أفراده (٢٧).

ولجأ هذا الجيل بعد ولوجه عالم الشّغل إلى التّعبير عن نفسه من مكان العمل والمصنع بصورةٍ مُباشرة. من خلال إضراباتٍ عُمّاليّة لم تشهد لها الجزائر مثيلًا من قبل، في قطيعةٍ واضحة مع أشكال الاحتجاجات

المنطقة الله المعارضة المع

⁷⁷ تبنّى الرئيس الشاذلي بن جديد منذ النّصف النّاني للثمانينيّات العودة إلى سياسة دينيّة جديدة متنوّعة؛ فاستعان ببعض شيوخ الإخوان، كمحمد الغزالي ويوسف القرضاوي اللذين درّسا في جامعات الجزائر وأقاما مدة طويلة فيها. وقام بذلك في الوقت نفسه الّذي طوّر فيه علاقات جديدة مع الزوايا الدّينيّة التقايديّة التي كانت منكمشة على نفسها منذ الاستقلال. وقد تبنّى الرئيس عبد العزيز بوتفليقة هذه السياسة في دعم الزّوايا على نحوٍ ملفت للنظر، منذ وصوله إلى الحكم في عام ١٩٩٩.

المحدودة للعمّال السابقين، المُتَشَبِّعين بالفكر الوطنيّ وتجربة ثورة التّحرير (٢٨). كما عبّر عن نفسه من خلال رفض هياكل النقابة الرّسميّة، ليُنَظِّم احتجاجاته وإضراباته خارج هياكلها حتّى قبل الاعتراف القانونيّ بالتّعدُّديّة النّقابيّة. زدْ على ذلك؛ التّعبيرات الفنّية الّتي تبنّاها هذا الجيل، كأغنية الرّاي والأغنية الأمازيغيّة، وكلّ أشكال النّعبير الفنّي الأخرى الّتي جرّبها لمواجهة خيارات الجيل الأوّل الرّسمي وذوقه، وحتّى الجيل الثّاني الذي كان أكثر انفتاحًا كمستهلكٍ ثقافيّ على الأقلّ (٢٩).

٥. العلاقات بين الأجيال: والنّظرة إلى الآخر

نستشفُ من التّحليل السّابق؛ أنّ العلاقاتِ بين الأجيال الثلاثة، ونظرة كلّ جيلٍ إلى الآخر، ليست واحدةً ولا متشابهةً. فهي نظرة ليست مبنيّةً على أُسسٍ ذاتيّةٍ فحسب، بل تتوقّف على مدى معرفة كلّ جيلٍ بالآخر واحتكاكه به؛ بحيث يمكن القول إنّ الاحتكاك المباشر والعمل داخل المؤسّسات نفسها، يساعد على إيجاد أرضيّةٍ صالحةٍ لنظرة تقديريّة للآخر. فالجيل الثّاني الّذي اشتغل كمنقذٍ لدى الجيل الأوّل في تسيير المؤسسات الاقتصاديّة والاجتماعيّة، لا يزال يكنُ احترامًا معقولًا للجيل الأوّل، وينظر إليه نظرة فيها الكثيرُ من الاحترام والاعتراف بالأدوار الّتي أدّاها في ثورة التّحرير واستعادة السّيادة الوطنيّة. وبالعكس رفض الجيل الثّالث دخول مؤسّسات الجيل الأوّل – السياسيّة والنّقابيّة الرّسميّة – ممّا لم يسمح له بالاحتكاك بالجيل الأوّل أو لقائه (١٠٠)، عدم لقاء هذين الجيلين، عمّق الصّورة السلبيّة لجيل الثّورة (الأوّل) عند جيل الشّباب (التّالث)، وهي الصّورة التي تهمل الأدوار المِفصليّة الّتي أنجزها هذا الجيل تاريخيًا في تحرير الجزائر.

إنّ الأمر لا يتوقّف عند عدم الاحتكاك المباشر بين الجيلين أو داخل المؤسّسات فحسب، بل يتعدّاه إلى مسائلَ أخرى؛ من بينها التّجربة السّياسيّة للجيل الأوّل الّذي احتكر تسيير الشّأن السّياسيّ منذ مرحلة ما قبل الاستقلال، ممّا جعله يدفع ثمن هذا التّسيير الطّويل للدّولة الوطنيّة بكلّ ما أنتجه من تآكل في الشّرعيّة

^٣ يمكن العودة إلى تفاصيل التّحليل الّذي يقوم به عالم الاجتماع الجزائريّ د. جمال قريد للفروق بين تنشئة وممارسات ما يسمّيه بالعاملِ الكلاسيكيّ كبير السِّنّ والعامل الشّابّ من أبناء الجيل الثّالث:

Djamel Guerid, *L'exception algérienne : la modernisation a l'épreuve de la société*, (Alger : Casbah éditions, 2007), pp. 188-242.

^٣ تنوّعت الخيارات الفنيّة للجيل الثّالث، فقد تراوحت بين أغنية الرّاي الإباحيّة والأغنية الأمازيغيّة الملتزمة، مرورًا بمنشدي المديح الدِّينيِّ، وُصولًا إلى الرّفض الكُلِّيِّ لكلّ الأشكال الفنيّة ومحاربتها باسم النّظرة السّلفية السّاندة للّدين ِ

^{&#}x27; َ لجأت السلطات في السنوات الأخيرة إلى تنظيم ندوات فكريّة وسياسيّة، يتحدّث فيها بعض المجاهدين من أبناء جيل الثورة للشّباب من طلبة جامعيّين وثانويّين عن ذكرياتهم وتجاربهم. ولعزوف الشباب عن حضور هذه الندوات، لجأت ذات السّلطات إلى إحضار طلبة المدارس الرّسميّة، كمدارس الشّرطة والحماية المدنيّة لملء الفراغ.

وعُيوبٍ، كالفساد، وسُوء توزيع الثّروة الوطنيّة، والتّخبُط في المجال الاقتصاديّ والاجتماعيّ الّذي جعل الجزائر تُراوح مكانها على الرّغم من إمكانياتها الطّبيعيّة والبشريّة.

أمّا عن علاقة الجيل الثّاني بالثّالث؛ فهي أكثرُ موضوعيّة، لأنّنا أمام علاقةٍ هي أقربُ إلى تلك الّتي نجدها بين الأجير أو المخدّم من جهةٍ، وربّ العمل أو المُسيّر من جهةٍ أخرى؛ فهي علاقةٌ متوترة ونزاعيّة، لكنّها ليست علاقة رفضٍ أو بُعدٍ نفسيّ. إنّ العلاقة اليوميّة بين الشّباب والجيل الثّاني الأكبر سنًا والمُسيّر للشّأن الاقتصاديّ والاجتماعيّ، تأثّرت سلبًا بجو الأزمة الاقتصاديّة والاجتماعيّة لتظهر شروخها الأولى داخل المؤسسات الّتي يسيّرها هذا الجيل على وجه التّحديد، لكنّها لم تصل إلى مرحلة القطيعة والعداء، كما هو حاصل مع الجيل الأوّل (١٤).

الخيارات السياسية والاقتصادية الجديدة في بداية تسعينيات القرن الماضي؛ كتقليص دور الدّولة والخصخصة وما رافقها من تسريح للعُمّال وحلً للمؤسّسات العموميّة، مع ما تزامن معها من أزمة ماليّة؛ تسبّبت في زيادة نقاط الصرّاع بين الجيلين (الثّاني والثّالث)، لكنّها تبقى صراعات مصالح وسياسات اقتصاديّة، ولا تتعدّى ذلك إلى الجوانب السّياسيّة والفكريّة كما هي نظرة جيل الشّباب إلى جيل الثّورة؛ فالجيل الثّاني المُسيِّر، لا يريد أن يُقلِّد العلاقة نفسها، ولا يريد أن يحتلً مكان الأب كذلك، كما أنّه جيل لا يدّعي شرعيّة ثوريّة غير متوفّرة لديه. تلك "شرعيّة ثوريّة" عقدت الأجيال الصّغيرة في الجزائر وجعلتها تنظر لنفسها وكأنّها من دون "مهمّة تاريخيّة"، ثلِّح على التّوق إلى انتصاراتٍ، حتّى ولو كانت بسيطة ومؤقّتة، كما حدث أكثر من مرّة، مع مباريات الفريق الوطنيّ لكرة القدم (٢٠).

نقول هذا على الرّغم من اتّهام جيل الشّباب للجيل الثّاني، بأنّه جيل "أنانيّ" لم يراع خلال عمليّة التّحوّل تلك، إلّا مصالحه الطّبقيّة الّتي عرف كيف يحافظ عليها. وهو بهذا المعنى؛ جيل بخصوصيّاتٍ سوسيولوجيّةٍ تجعَلُه أقرب إلى طبقةٍ وسطى. استفادت فئاتها العليا على وجه الخصوص، من التّسيير العموميّ للاقتصاد،

^{&#}x27; تشهد العلاقات داخل العائلة الجزائريّة الكثير من أنواع الصّراع بين الإخوة الممثّلين للجيل النَّاني الَذين نجحوا عن طريق التّعليم وحصلوا على ترقية اجتماعيّة من جهة والإخوة الأصغر من أبناء الجيل الثّالث الّذين فشلوا في دراستهم من جهة أخرى. إنّها علاقات لا تلغي حالات التّعاون الكثيرة بين الجيلين داخل الوسط العائليّ الواحد الذي تحوّل إلى مجال رئيس استثمر فيه أبناءه اجتماعيًّا واقتصاديًّا ونفسيًّا، بعد شعور قويّ بفشل مشاريع التّغيير المجتمعيّة الكليّة على المستوى الوطنيّ العامّ.

أخ كانت لحظة تأهل الفريق الوطني لكرة القدم إلى كأس العالم في جنوب أفريقيا ٢٠١٠، على الرّغم من قصرها، من اللّحظات القليلة بعد الاستقلال، التي تصالح فيها جيل الشباب مع رموز الحركة الوطنية. إذ كان انتشار العلم الوطنيّ ملفتًا للنّظر، لدرجة أعاد فيها الجيل الحاكم وإعلامه الرّسميّ النّظر في تقييمه لمدى "وطنية" جيل الشباب، حيث اكتشف أنه "وطنيّ" وما انفكّ يحبّ الجزائر، بخلاف ما أشبع عنه في السّابق عبر الخطاب الرّسميّ للجيل الحياكم ومؤسّساته. كانت لحظة حاول المسؤولون إطالتها واستغلالها سياسيًا، حتّى بعد انتهاء المونديال.

بغرض الانتقال من موقع الأجير إلى موقع المالك المرتبط في حالاتٍ عديدةٍ برأس المال الأجنبيّ، في الوقت الذي تدهورت فيه مواقع الكثير من الفئات الأخرى من أبناء الطبقة الوسطى الدّنيا والفئات الشّعبيّة. وممّا يؤخذ على الجيل الثّاني المُسيِّر، فشلُه في عالم الشُّغل؛ الأمر الّذي أدّى إلى إبطال تحالُفاتٍ اجتماعيّةٍ كانت ممكنة التكوين، للدِّفاع عن القطاع العموميّ وبناء كتلةٍ اجتماعيّةٍ تاريخيّةٍ تستند على هذا القطاع المُهمّ، بدلًا ممّا حدث من تفكيكٍ له. ذلك السيناريو لم يتحقّق على أرض الواقع، بسبب التّشئة السّياسيّة الّتي عرفها هذا الجيل الثّاني المُسيَّر الفاقد للمبادرة السّياسيّة المستقلّة، بعيدًا عن سيطرة الجيل الأوّل ومؤسّساته السّياسيّة الرّسميّة الّتي تَعوّد الانصياع لتعليماتها.

بقدر ما يُلقيه جيلُ الشّباب من نظرةٍ سلبيّةٍ على الجيل الأوّل، جيل النّورة وبناء الدّولة الوطنيّة، نَتَلَمّس في المقابل النظرة السلبيّة ذاتها لدى هذا الأخير تجاه جيل الشّباب، فهو إذن؛ باختصار: "جيل عاق" و "مشوّش"، ثارَ في وجه "الجيل الأب" عن طريق الاحتجاج اليوميّ؛ فهو جيل غير مُشبع بما يكفي من القيم الوطنيّة التي ينفر منها ومن رموزها، حتّى وصل به الأمر إلى حدِّ التّشكيك في جهاد جيل الاستقلال وتضحياته. وسرعان ما تجسّدت هذه النّظرة بعد زمنٍ وجيز، في موجةٍ من الاغتيالات، تعرّض لها كثير من المجاهدين وأبناء الشّهداء، على يد جماعاتٍ دينيّةٍ إرهابيّةٍ، أغلب عناصرها من فئة الشّباب. كان ذلك في أثناء عقد التّسعينيّات ("٤٠)، وهي الفترة الّتي عاد فيها الكثير من المجاهدين من أبناء هذا الجيل الكهل، إلى حمل السّلاح من جديد، في وجه هذا "الجيل العاق" الّذي ركب التيّار الإسلاميّ الجذريّ العنيف حركاته الاحتجاجيّة، لتوجيهها ضدّ الدّولة الوطنيّة ورموزها.

٦. سيناريوهات الانتقال

بعد أن تعرّفنا بالتقصيل على الأجيال الثّلاثة الّتي تؤطّر الحياة السّياسيّة في الجزائر ومؤسّسات تنشئتها ونظرتها إلى الآخر بكلّ حمولتها الفكريّة والثّقافيّة، يمكننا أن نتطرّق إلى الجزء الثّاني من الدِّراسة، المُتعلّق بالسّيناريوهات الممكنة للانتقال في الجزائر، وهو لن يكون -كما أسلفنا- انتقالًا سياسيًا فحسب، بل جيليًا وفكريًا ومؤسساتيًا كذلك، وهو بذلك؛ يفترض التّغيير في آليّات تسيير المؤسّسات السّياسيّة المركزيّة وعلاقاتها

[&]quot; قبل الاغتيالات؛ علت نبرة الكلام في الجزائر بين أبناء هذا الجيل، تحت تأثير تيّارات دينيّة متطرّفة ضدّ المجاهدين (من شاركوا في ثورة التحرير) لأنّهم حصلوا من الدّولة على مقابلِ عن جهادهم، وذاك ما أفقدهم فضيلة الجهاد، الذي لا يكون -بحسب حكم الدّين- إلّا في سبيل الله، وليس من أجل مصالح دنيويّة زائلة.

فيما بينها، كتلك العلاقة الّتي تربط المدنيّ بالعسكريّ. إنّه انتقال يتطلّب الخروج من عباءة الوطنيّة بتجديدها وربطها بالعصر وبالفئات الاجتماعيّة الفاعلة الّتي ابتعدت عنها، كالشّباب والنّساء والفئات المؤهّلة. ويتطلّب هذا الانتقال أيضًا، أن يُسلِّم جيل الثورة – الذي وصل إلى محطّته الأخيرة بيولوجيًا – مقاليدَ السلطة السيّاسيّة إلى الأجيال الأصغر. انتقال سنكون فيه أمام سيناريوين محتملين؛ أطلقنا على أوّلهما تسمية "السيّناريو الإيجابيّ" أو "الإصلاحيّ غير الثوريّ"، وهو يتلخّص في انتقال السلطة السيّاسيّة من جيل الثورة إلى الجيل الثّاني، الأكثر تأهيلًا والأكثر تجربةً في التسيير. وهذا انتقال للسلطة إلى جيلٍ لا يزالُ قريبًا من الفكرة الوطنيّة، حتّى وهو بصدد انتقادها داعيًا إلى تطويرها، ولا يزالُ يُكنُ الكثير من الاحترام لجيل الثورة، وهو ما قد يساعد على انتقالِ سلس للسلطة بين الجيلين.

لكن عوائقَ تقف في طريق هذا السيناريو، لعل أبرزها خصائص التنشئة الثقافية والسياسية للجيل الثاني الذي تعود على التسبير تحت رقابة سياسية فوقية، ولم يتعلّم المبادرة السياسية خارج الأطر التي وضعها له جيل الثورة. كذلك؛ فإنّ احترام تقسيم العمل ولوائحه السائدة داخل مؤسسات النظام السياسي الجزائري، لم يتح لهذا الجيل غير موقع المنفّذ وليس المقرّر والمبادر. ويضاف إلى ذلك عائق الانقسام الذي يميّز شرائح واسعة من هذا الجيل المستنير، حيث تعاني صفوته من عدم القدرة على التواصل باللَّغة العربية مع محيطها الشَّعبي، وذلك حتمًا يُعيق إمكانيّة الحوار معه. مثل هذا الإشكال نجده سائدًا لدى المسيّرين والتكنوقراط، الذين تكفّلوا بتسبير القطاعات الصّناعيّة والإداريّة في الجزائر.

لكن؛ مهما كانت هذه الصعوبات الفعليّة، فإنّ مَيِّزة الجيل الثّاني، تكمُن في موقعه الوسط بين الجيلين الآخرين، ما يؤهّلُه للقيام بدور الوسيط بينهما. كما أنّ نظرته الإيجابيّة للجيلين الآخرين، ولِذاتِه قبلهما، يمكن أن تساعد على إنجاز هذا الانتقال السّلس للسّلطة. يمكن كذلك، أن تساعد الأواصر الفكريّة المتمثّلة في الوطنيّة التي يشترك فيها مع الجيل الأوّل على إنجاز انتقالٍ سلِسٍ على المستويات الفكريّة والسياسيّة كافّة. هذا السّيناريو؛ على هدوئه النسبيّ وسلاسته، فإنّه يتطلّب إصلاحاتٍ عميقة لمؤسّسات الدّولة وعلاقاتها بالمجتمع، بما فيها الأحزاب والجمعيّات والثقابات الّتي يسيطر الجيل الثّاني على قيادتها.

أمّا السّيناريو الثّاني، فيمكن أن يكون بديلًا للسّيناريو الأوّل في حالِ فشله، وفي حالِ رفض الجيل الأوّل التّاني المرّبة المستعل"، وهو ما يشي به الخطاب السّياسيّ-الإعلاميّ الرّسميّ، ممّا يحوّل الجيلَ الثّاني إلى "جيل

سندويتش" مجرّدٍ من الأدوار السياسية الفعليّة؛ فهو يكبر في السنّ ويبقى ينتظر دورًا سياسيًّا لن يأتي! لكنّ هذا الدّور المستحيل؛ هو الحريّ بحسم الأمور بين أكبر وأصغر جيلٍ في الجزائر. هنا يظلُّ عامل الوقت مُهمًّا جدًّا لتفسير إمكانيّة حدوث السيناريو الثّاني، فكلّما امتدَّ وقت إنجاز مهامّ الانتقال السياسيّ في الجزائر، مهدّ ذلك حموضوعيًّا للإمكانيَّة تجسيد السيناريو الثّاني الّذي يعني: أن يبادر الجيل الثّالث؛ جيل الشّباب والحركات الاجتماعيّة، إلى أخذ السلطة عنوةً من الجيل الأوّل الّذي ينظر إليه وإلى مؤسساته وخطابه، نظرةً سلبيّةً واضحةً، مع كلِّ ما قد يرافق ذلك من قطيعةٍ على أكثر من مستوًى فكريّ وسياسيّ وجيليّ ومؤسساتيّ.

إِذًا؛ فالأمر متوقّف برُمّته على جيل الثّورة والسّلطة المتحكّم في القرار السّياسيّ ومؤسّساته. فهذا السّيناريو الثّاني، والّذي يحتمل أن يكون عنيفًا؛ ليس حتميًّا بالضّرورة، إذا بادر الجيل الموجود في مراكز القرار السّياسيّ بتنظيم انسحابه منها بشكلٍ هادئ وتوافقيّ، لصالح الجيل الثّاني: ابنه الرّوحيّ (١٤٠).

هذا الوضع؛ قد يفسر كيف أنّ الساحة السياسيّة في الجزائر، تشهد صراعًا داخليًّا يتراوح بين مطالبة الجيل الثّاني بإصلاح النّظام القائم بشكل رئيس (وهو بذلك، لا يريد القطيعة التّامّة مع الأوضاع القائمة، على الرّغم من نقده لها وتذمُّرِه منها) والمطالبة برحيل النّظام وتغييره جذريًّا، وهو منحًى اتّخذه أبناء الجيل الثّالث وجزء من الحركات الاحتجاجية الّتي تمثلُهم. وقد تستمر هذه المزاوجة في الطّرح لوقتٍ طويلٍ نسبيًّا، لكنّها حتمًا تتهى إلى مرحلة الحسم الّتي ستقرّرُ شكل الحلِّ التاريخيّ لأزمة الانتقال السّياسيّ في الجزائر.

٧. شروط الانتقال: بين العوامل الموضوعية والذاتية

في خاتمة القسم الأوّل من هذه الدّراسة، لا بُدّ من التّذكير بأنّ عمليّة الانتقال السّياسيّ في الجزائر، بكلّ خصوصيّات شروطها الّتي أشرنا إلى بعضها، لا تحدث في فراغٍ، فهي نتم ضمن شروط سياسيّة وتاريخيّة محدّدة، قد لا تكون مساعدة على الانتقال في كلّ الحالات. شروط نقسّمُها -في حالتنا- إلى موضوعيّة وأخرى ذاتيّة. وفي اعتقادنا؛ أنّ الأولى منها: شروط مُساعِدة في الغالب، وتعمل في الاتّجاه الإيجابيّ نحو التّغيير. في حين أنّ الشروط الذاتيّة غير مساعدة على إنجاز عمليّة الانتقال، وتُمثّل عقباتِ حقيقيّة أمام

٧.

إنجاز الإصلاحات المطلوبة في الجزائر. ممّا قد يعطي فكرةً للقارئ عن المأزق الّذي تعيشه العمليّة الإصلاحيّة في الجزائر.

على كلًّ؛ يمكننا حصرُ الشّروط الموضوعيّة في ثلاثةٍ رئيسةٍ، قد تساعد – في اعتقادنا – في تسريع إنجاح الانتقال السّياسيّ وإتمامه في ظروفٍ مُواتية ومعقولة. من هذه الشّروط ما هو متعلِّق بالوضع الماليّ للبلد، ومنها ما هو مرتبط بالتّجرِبة السياسيّة القريبة للجزائريّين، وما استخلصوه منها من عبر. ثمّ أخيرًا تلك الشروط المُتَعلِّقة بالبُعد العربيّ والدَّوليّ الضَّاغط بقوَّةٍ هذه الأيّام، بخلاف ما يتمُّ التَّرويج له في بعض الأحيان، في الخطابيْن السّياسيّ –الإعلاميّ الرّسميّ، بأن لا تأثيرَ لِمَا يحدثُ في العالم العربيّ على الجزائر، كمثل الّذي تمّ ترديدُه في العديد من الحالات الوطنيّة الأخرى، قبل أن تحدُثَ التَّحوُلاتُ المعروفة في أكثر من قطرٍ عربي (٥٠).

الوضعُ الماليّ الذي تعيشه الجزائر وليس الوضع الاقتصاديّ (٢٠١)، يعدّ اللوهلة الأولى عاملًا مساعدًا في إنجاح الانتقال، لأنّه قد يكون - وبكلٌ بساطة - عاملًا يسمح لصاحب القرار باتّخاذ القرارات الاقتصاديّة والاجتماعيّة الّتي عادةً ما تواكبُ مرحلة الانتقال بكلٌ تعقيداتها، من دون الرّضوخ إلى ضغوطٍ أجنبيّة أو التّخوُف من آثار الوضع الماليّ في الخيارات الّتي يُمكن أن تُتَخذ. المفارقة هنا؛ أنّ هذا الوضع الماليّ المئيسر موضوعيًا، قد يتحوّل إلى عاملٍ مُعرقلٍ لعمليّة الانتقال نفسها، كما هو سائد منذ كانون الثاني / يناير المؤسوة المئلطات العموميّة في هذه الفترة إلى سياساتٍ اجتماعيّةٍ هي أقرب إلى منطق "الرّشوة الاجتماعيّة الاجتماعيّة المئيس منها إلى الإصلاح الاجتماعيّ أو الاقتصاديّ، بهدف شراء سِلمٍ اجتماعيً هشّ يساعد على

[&]quot;أ يعاني الخطاب الرسمي السياسي-الإعلامي من تخبط كبير، فمرة يرى أنّ الجزائر قامت بانتقالها السياسي في ١٩٨٨ ودفعت الثمن غاليًا، وبالتّالي ليست هي في حاجة إلى إصلاحات جديدة، إذ قامت بها قبل الآخرين منذ أكثر من عشرين سنة، علمًا بأنّ النّطرة الرسميّة لأحداث تشرين الأوّل / أكتوبر ١٩٨٨، لم تكن بهذا الشكل الذي يقدّمها به الخطاب الآن الشيء نفسه، نجده عند الحديث عن أحداث كانون الثاني / يناير ٢٠١١، التي قدّمها الخطاب الرّسميّ بأكثر من شكل، وتحت صور متعددة، فمرّة هي أحداث شغب قام بها مراهقون خارجون عن القانون، ومرّة هي حركة مشروعة للمطالبة بتخفيض أسعار بعض المواد الغذائية؛ ليتم في الأخير، التعامل مع هذه الحركة الاحتجاجية التي مست أغلب المدن الجزائرية كحركة سياسيّة بامتياز، فبعدها مباشرة، أعلن رئيس الجمهوريّة عن نيّته في إجراء إصلاحات سياسيّة عميقة، كان من بينها رفع حالة الطّوارئ المطبقة السياسيّة الرّسميّة. عن تعديل عميق للدّستور، ووضع قوانين جديدة للانتخابات والأحزاب والجمعيّات، وانطلاق مشاورات سياسيّة مع الطّبقة السياسيّة الرّسميّة. عن تعديل عميق الجزائر يعلى الجزائر، بلغ نحو ١٦٠ مليار دولار.

علمًا بأنّ الجزائر قد قامت بتسديد مسبق لكل ديونها الخارجيّة. أمّا على المستوى الاقتصاديّ، فإنّ الأمور لم تعرّف تحسنًا نوّعيًا يذكر، فالاعتماد على البترول لا يزال هو السّاند (٩٧ %)، في الوقت الذي فُككت فيها القاعدة الصناعية؛ ولم تنطلق بعد القطاعات الأخرى كالزّراعة والخدمات السياحية.

** وصلت الزّيادات في الأجور لكثير من الموظّفين إلى ١٠٠% بأثر رجعيّ من سنة ٢٠٠٨. كما مُنحت قروض عديدة للشّبان لإنشاء مؤسّساتهم الصغيرة. في الوقت الذي وُزّعت فيه عشرات الآلاف من السكنات الاجتماعية (مساكن توفرها الدولة بإيجار رمزي). ولم تترافق زيادة الأجور مع أيّ حوار جدّي مع النقابات المستقلة التي طالبت بتحسين القدرة الشرائية لمنخرطيها منذ سنوات، ولم يؤثّر ذلك إيجابًا في أداء المؤسّسات، فلم يكن واردًا عند السلطات العموميّة، أن تتمّ الزّيادات في الأجور، في إطار عقد اجتماعيّ جديد يحدّد الحقوق والواجبات. فالأمر المهمّ، كان شراء سلم اجتماعيّ مؤقّت عن طريق السيولة الماليّة المتوفّرة. حيث العقد الاجتماعيّ يتطلّب الحوار مع أطراف معترف بشرعيّة وجودها وبحقها في الاختلاف، وهو ما لا يقبل به المنطق السّياسيّ الرّسميّ السائد.

استمرار الأوضاع السياسية كما هي وليس على تغييرها؛ أو إدخال تحسينات شكليّة تهتم بالإطار القانونيّ في أحسن الأحوال، من دون النّفاذ إلى لُبّ المشاكل، ممّا جعل هذا الحَرَاك يستمر ويتنوّع في مطالبه، ويبدو وكأنّه من دون سقف، حتى وإن استمر في الطّرح الاقتصاديّ والاجتماعيّ، ذي الصّبغة الفئويّة في الغالب (٤٨).

من العوامل المساعدة موضوعيًا، على إنجاح عمليّة الانتقال الأخرى، ما يمكن وصفُه بـ "تَعَقُّل الجزائريّين" الدّين اكتوَوا بنيران حربٍ أهليّةٍ، لمُدَّةٍ تزيدُ على عقدٍ من الزّمان، أزهقت فيها أرواحُ أكثر من ٢٠٠ ألف مواطن (٢٠٠). تَعَقُّل؛ يمكن قياسه بنوعيّة النّقاش الاجتماعيّ والسّياسيّ في الجزائر في السّنوات الأخيرة، مقارنة بالطّرح الذي كان سائدًا خلال تسعينيّات القرن الماضي، والذي ساد فيه الطّرح الثّقافويّ والأيديولوجيّ بدل الاقتصاديّ الاجتماعيّ والسّياسيّ الذي يملك قوّةً تفاوضيّةً كبيرة، بخلاف نوعيّة الطّرح الأوّل الذي تصبح المجتماعيّ والسّياسيّ الذي يملك عربة أما يكون مرتبطًا بالتحوّلات الدّيموغرافيّة السّريعة الّتي تعيشها المجتمعات، كما حدث في الجزائر.

إنّ طرحًا أكثر موضوعيّةً وأكثر ابتعادًا عن الإشكالات الأيديولوجيّة الثقافويّة – الّتي يتطلّب حلُّها أمدًا طويلًا –، يُمكِنُ تَلَمُّسُه من خلال مطالب الحركات الاحتجاجيّة التي تشهدها الجزائر منذ كانون الثاني / يناير ٢٠١١، بتواتر لافت للنظر (٥١). مؤشِّر آخر؛ يُمكن تلَمُّسُه في الضّعف الّذي اعترى الأحزاب والحركات السياسيّة الّتي كانت متخصّصةً في تبني هذه الأطروحات الثقافويّة، الّتي اهتمّت بمسألة اللّغة والهويّة والدّين. وإعلاميًّا كذلك؛ يُمكِن تَلَمُّسُ انحسار هذا الطّرح. فالنّقاشات بشأن الهُويّة والمرأة وكلّ القضايا الثّقافويّة الّتي

أن أسبح هذا الرقم شبه رسمي، ولاسيما بعد حديث الرئيس بوتفليقة عنه في إحدى خطبه وقدرت الآثار الاقتصادية بعشرين مليار دولار، وكل الجوانب النفسية والاجتماعية المسكوت عنها في الغالب، كالهجرة القسرية التي مست آلاف العائلات، وما تعرض له الأطفال والنساء من اعتداءات جنسية واغتصاب

⁵⁰ Emmanuel Todd, *Après l'empire, essai sur la décomposition du système américain*, (Paris : éd. Gallimard, 2004), p79.

[°] قدّرت صحيفة El Watan (الوطن) اليوميّة والصادرة بالغة الفرنسيّة، أنّ هناك تدخّلًا لشرطة مكافحة الشّغب كلّ ساعتين في الجزائر، خلالُ هُذُه الفترة الّتي انطلقت بعد كانون الثاني / يناير ٢٠١١، بمعدّل ٥٥٥ احتجاجًا في الشهر، و١٨ في اليوم الواحد. كلّها تطرح قضايا اجتماعيّة واقتصاديّة مرتبطة بتوزيع الثّروة الوطنيّة، كقضيّة السّكن والماء والبطالة. (انظر جريدة El Watan الصادرة بتاريخ ٩ حزيران / يونيو ٢٠١١).

كانت حاضرةً بقوّة في عقد التسعينيّات ونهاية الثّمانينيّات، قد خفّت الآن، ولم تعد تجد لها من يروّج لها، كما كانت الحال في السّابق، ولاسيّما بعد هذا التّحوّل في الطّلب الاجتماعيّ (٥٢).

أخيرًا؛ وضمن سلسلة الشّروط الموضوعيّة المساعدة على إنجاح عمليّة الانتقال وتسريعها، يمكن أن نذكّر بالبعد العربيّ والدّوليّ السّائد منذ بداية السّنة الحاليّة. فالجزائر موضوعيًّا؛ لا يمكنها أن تغرّد خارج السّرب المغاربيّ والعربيّ، كأنْ تبقى الأوضاع فيها راكدةً أو تنتكِس عمّا هو ماثلٌ من سقفٍ إصلاحيّ في المنطقة (٢٥). فالوضعان العربيّ والدّوليّ عاملان ضاغطان على النّظام السّياسيّ الجزائريّ، لكي يقوم بإصلاحاتٍ سياسيّة تساعده على عدم التّحوّل إلى نظامٍ "شاذً" في المنطقة، مُحاصرٍ دوليًّا ومن محيطه القربب.

يلاحظ القارئ أنّ ما اعتبرناه عوامل مساعدة موضوعيًا على الانتقال والإصلاح، يمكنها أن تتحوّل في بعض الحالات، إلى عوامل مُثبطة للإصلاح ومعرقلة للانتقال، كما هي حال الوضع الماليّ الجيّد الذي تعيشه الجزائر، بعد أن تحوّل إلى عمليّة رشوة اجتماعيّة واسعة، للإبقاء على الوضع السيّاسيّ في الوقت الحاليّ. يمكن لتأثير البعدين العربي والدولي أن يكون في اتّجاه سلبيّ على قرار التّغيير والانتقال في الجزائر، ففوز الإسلاميّين مثلًا في انتخابات ما بعد الثورة في تونس ومصر يمنح النظام الجزائريّ حُججًا لصالح استمرار الأوضاع على ما هي عليه، وعدم تغييرها، بدعوى الخوف من انتكاسها وتكرار التّجربة السّابقة الّتي عاشتها الجزائر في بداية التسعينيّات من القرن الماضي، وكيف أدّت إلى وقف المسار الانتخابيّ في كانون النّاني / يناير من عام ١٩٩٢، ودخول البلاد في دوّامة من العنف.

ولا شكّ في أنّ الحالة الليبيّة ستؤثّر بسلبيّاتها الكثيرة في الجزائر، أكثر من تأثير إيجابيّات الحالتين التّونسيّة والمصريّة، نتيجة التّدخّل العسكريّ والسّياسيّ الأجنبيّ، حيث يتحوّل هذا البلد الجار إلى فزّاعةٍ فعليّة يجري بها ابتزاز المواطن الجزائريّ. من هنا يمكننا أن نفهم، كيف أنّ عامل الوقت مهمٌ لانطلاق الإصلاحات في

[°] انقسام الفئات الوسطى المتعلّمة، يظهر بارزًا للعيان هنا، فالصّحافة الصّادرة باللغة العربيّة مثلا، هي الأكثر الحاحًا على مثل هذه المواضيع، بخلاف الصّحافة الصّادرة باللّغة الفرنسيّة.

[&]quot;٥ سقف الإصلاحات الدستورية المتواضع في المغرب، كان له تأثير سلبي في الإصلاحات الدستورية والقانونية الأخرى في الجزائر، التي بدأت تظهر في نصوص القوانين التي صادق عليها البرلمان الجزائري في نهاية عام ٢٠١١. فقد تعود النظامان على التنافس فيما بينهما، تحت ضغط الرأي العام لكل دولة المتابع لتفاصيل الحدث داخل الدولة الأخرى.

الجزائر. هذا؛ إذا راعينا أنّ كلّ هذه المتغيّرات، تتحكّم فيها عوامل مرتبطة بالمدى القصير والمتوسّط، في أحسن الحالات.

إنّ ما أسميناه بالمحدِّدات أو الشروط الموضوعيَّة المساعدة على الإصلاح وعمليّة الانتقال، تبيّن لنا بعد عرضها، أنّها بالعكس قد تكون عوامل تثبيط وإبقاءٍ على الوضع القائم. إذًا، كيف ستكون الصّورة؟ إذا انتقلنا إلى ما أسميناه العوامل الذاتيّة، والّتي سنركّز فقط على ثلاثةٍ منها، وكما يظهر من التّحليل؛ فإنّها ليست جميعُها مساعدةً على الإصلاح وإنجاز الانتقال، ممّا يدلّ على الصّعوبات الخاصّة الّتي تعاني منها الحالة الجزائريّة في إنجاز عمليّة الانتقال والإصلاح السّياسيّ.

ومن بين هذه الشُّروط الذاتيّة غير المساعدة، لا نعتقد أن تكون خصوصيّات النّظام السّياسيّ الجزائريّ وآليّات تسييره عوامل مساعدة على إنجاز الانتقال بالسّلاسة المطلوبة. فالنّظامُ السّياسيُّ الجزائريّ، ليس نظامًا رئاسيًّا بالنّمط الّذي كان عليه النّظامُ التُّونسيّ أو المصريّ؛ على الرّغم ممّا استرجعه الرّئيس بوتفليقة من صلاحيّاتٍ لمصلحة رئاسة الجمهوريّة، كمركز قرارٍ مدنيّ، منذ ولايته الثّانية في عام ٢٠٠٤؛ فهو ليس نظامًا قابلًا للتّغيير بذهاب ركيزته الأولى، كمثل الذي حدث بعد هروب بن على وتنحّي مبارك.

كما أنّ خصوصيّات العلاقة الّتي تربط المدنيّ بالعسكريّ، لن تكون لصالح التّغيير والإصلاح، بأيّ حالٍ من الأحوال، باعتبار أنّ مُسيِّر الواجهة المدنيّ، يمكن أن يتغيّر، من دون أن يحصل أيُّ تغييرٍ على صاحب القرار الفعليّ العسكريّ. وحتى هذا الأخير، يمكن أن يشهد تغييرًا على مستوى الأشخاص، كما حدث أكثر من مرّة، من دون أن يعني ذلك بالضّرورة تغييرًا في العلاقة المؤسّسيّة بين العسكريّ والمدنيّ (ثقار من عمر النظام آليّات تسييره الحاليّة ويُصمّعبُ تغييره، ويقلّص من إمكانيّة محاسبة المؤسّسات والأشخاص ويُضعِف من شروط الشّفافيّة وتَحمّل المسؤوليّات (٥٠). فإذا أضفنا إلى كلّ هذا ضعف الأحزاب

[ُ] لمزيد من التفاصيل عن خصوصيّات النّظام السّياسيّ الجزائريّ، يمكن العودة إلى دراستنا عن اتّخاذ القرار في النّظام السّياسيّ الجزائريّ ضمن المؤلّف الجماعي: نيفين سعد (تحرير وتنسيق)، **كيف يصنع القرار في الأنظمة العربيّة**، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربيّة، ٢٠١٠)، ص.ص. ٩-١٢٦

[°] الكثير من المسؤولين المدنيّين، وفي أعلى المستويات، بمن فيهم الوزراء، وحتّى رؤساء الحكومات، يعتقدون أنّهم غير مسؤولين عن أخطاء النّظام، باعتبارهم لم يشاركوا في القرار، كما جاء على لسان رئيس الحكومة الأسبق سيد أحمد غزالي في حواره مع شفيق مصباح. ولم يتورّع غزالي عن وصف هؤلاء الإطارات مثله بأنّهم كانوا "حركى" لدى النّظام ("الحركى" هم المتعاونون من الجزائريّين مع الجيش الفرنسيّ أثناء الاستعمار) في مقابلات مع جرائد جزائرية.

Sid ahmed Ghozali, Questions d'état: entretien avec mohamed chafik mesbah, (Alger: casbah éditions, 2009).

ووجود ثقافة سياسيّة شعبيّة مطلبيّه وجذريّة تؤمن بالفعل المباشر - كما هو سائد لدى جيل الشّباب من أبناء الفئات الشّعبيّة - فإنّنا نجد أنفسنا أمام سيناريو معقّد للتّغيير السّياسيّ في الجزائر.

أمّا العاملُ الثّاني ضمن هذه الشّروط الذَّاتيَّة غير المساعدة، فيرتبط بخصائص الفئات الوسطى في الجزائر وأدوارها، بكلِّ الانقساميّة الّتي تعانيها والّتي تحدّثنا عن بعض مظاهرها في القسم الأوّل من هذه الدّراسة. فهذه الفئات وعلى الرّغم من أصولها الشعبيّة في الغالب، فإنّها معزولة ومنقسمة على ذاتها ثقافيًا ولغويًا. وهي فئات لن تكون ذات فعاليّة كبيرة في المبادرة بالإصلاح، كما لاحظنا ذلك، ونحن نتحدّث عن الجيل السّياسيّ الثّاني، وما ميّزه من شروطِ تنشئةٍ وتجربةٍ مهنيّةٍ وصلت به إلى أُفقٍ مسدود، بعد الخيارات السّياسيّة والاقتصاديّة الّتي تبنّتها الدّولة.

إنّ الضّرر الواقع على هذه الفئات جرًاء تلك الخيارات، جعلها تلجأ إلى الحلول الفرديّة (٢٠)، كما يتبيّن من سلوك الهجرة ومغادرة الجزائر عند الشّدائد، مثل ما حدث في عقد التّسعينيّات من القرن العشرين، لدى جزءٍ هامٌ من المثقّقين والمتعلّمين من أبناء هذه الفئات الوسطى؛ مع نوعٍ من التّقوقع على الذّات وعدم المشاركة في قضايا الشّأن العامّ. كذلك فإنَّ نزعة من الخوف سيطرت على "الشّعب"، أدّت عند بعضه إلى طلب الاستتجاد بالجيش لحمايتها من محيطها الاجتماعيّ والسّياسيّ الّذي لم تعد تفهمه أو تقبل بنتائج خياراته السياسيّة والثقافيّة (٢٠)؛ في حين أنّ منطق الإصلاح والتّغيير، يقتضي أن ترتبط أكثر هذه الفئات الوسطى كمكوّنٍ أساسيّ للجيل الثّاني بأبناء الجيل الثّالث، لتجاوز العقبات الذاتيّة وخلق فرص لقاءٍ مع أبناء هذا الجيل الثّاب داخل المؤسّسات الّتي تسيطر عليها هذه الفئاتُ الوسطى، على غرار الحزب والنّقابة والجمعيّة.

كذلك، فإنّ عجز هذه الفئات الّذي ظهر بشكلٍ لافتٍ للنّظر مرّةً أخرى، خلال الأشهر الأولى من سنة للذي شهدت حَراكًا اجتماعيًّا واسعًا؛ لايزال مستمرًّا إلى الآن (٥٠). فهي لم تحاول أن تؤطّره أو تعمل على أن تمنحه دلالاتٍ ومعانيَ سياسيّة. ذلك عجزٌ عبّر عنه الحزب السّياسيّ الّذي تسيطر عليه الفئات

أن الحلول الفردية أصبحت اتّجاهًا عامًا سائدًا لدى الكثير من الفئات، بما فيها الفئات الشَّابَة المُمثّلة لأبناء الجيل الثّالث، كما لاحظنا ذلك ونحن نتحدّث عن بروز تيّارات سلفيّة وانتشار للمخدّرات والانتحار والهجرة السّريّة. وعرفت الفئات الوسطى هي الأخرى نوعًا آخر من الحلول الفرديّة، يتماشى ما مكانوات ما شده طحراتها، كُالهجرة السادمال الفرديّة، من الخارج من هذا مضرّة مكن صحورات بذاء مشرة عجماء من المتورد في الحزارة

وإمكانياتها وشروط حياتها، كالهجرة إلى الدول الغربيّة ودول الخليج . وهذا وضعٌ يعكس صعوبات بنّاء مشروع جماعيّ التغيير في الجزائر. ' تعوّل هذه الفئات المتعلّمة من الفئات الوسطى الحضريّة على المدرسة الخاصّة، لإعادة إنتاج مواقعها الاجتماعيّة، بدل المدرسة العموميّة الّتي لم تعد تثق في مخرجاتها بعد أن تمّ تعريبها، لدرجة اتّهامها بتفريخ الإرهابيّين. من هنا؛ قد نفهم سرّ الصّراع الكبير على المنظومة التّعليميّة في الجزائر، كمؤسّسة لإعادة الإنتاج غير المضمون لهذه الفئات داخل المدرسة العموميّة، ممّا جعل هذه الفئات تلجأ إلى المدرسة الخاصّة في الجزائر، وإلى نظام التّعليم الجرامعيّ الغربيّ والفرنسيّ على وجه التحديد.

^{^°} لا يعني هذًا أنّ الخَرَاك الاجتَماعيّ كان مفقودًا في الجزائر قبل هذا التّاريخ، فقد اخترنا فترة ما بعد كانون الثّاني/ يناير ٢٠١١ كمثال فقط، ولما يميّزها من كثافة في المطالبة والاحتجاج .

الوسطى، كما عبرت عنه النقابات المستقلة (٥٩) الّتي بقيت مذعنة إلى منطق المطالب النقابية الفئوية محرت عنه النقابية الفئوية السلطات العمومية لها، بما يتوفّر لديها من سيولة مالية. ذلك وضع قرّب الجزائر جزئيًا من الصورة السّائدة في دول الخليج العربيّ الرَّيعيّة، حيث رفضت الفئات الوسطى ومؤسساتها السّياسيّة والنقابيّة القيام بأيِّ محاولة تعمل على "لمِّ شمل" هذه المطلبيّة الكبيرة ومنحها بعدًا سياسيًّا تغييريًّا، يكون في اتّجاه إصلاح النّظام السّياسيّ الّذي تبدو هذه الفئات الوسطى متذمِّرةً منه ومن الكثير من سياساته في أكثر من مجال؛ لكنّها لا تعمل على تغييره عمليًا (١٠٠).

ضمن هذا السياق، لا بُدّ من التتويه بالمكانة الخاصة الّتي يحتلّها أبناء هذا الجيل النّاني، على مستوى المؤسّسة العسكريّة، كجيلٍ ثانٍ يتحكّم الآن –عمليًا – في تسيير المؤسّسة العسكريّة، من النّاحية التّقنيّة والإداريّة اليوميّة، لكنّه لا يسيطر حتّى الآن على القرار السياسيّ داخل هذه المؤسّسة المركزيّة. إذ يخضع القرار السياسيّ – عمومًا – لسيطرة الجيل الأوّل. ويزداد الأمر أهميّة في تحليلنا هذا، ونحن نتحدّث عن الجيش، ولاسيّما إن حاولنا ربط موضوع الانتقال السياسيّ بالدّور الّذي يمكن أن يؤدّيه الجيش في تنفيذه كمؤسسة. نكتفي بالقول إنّ وجود أبناء هذا الجيل النّاني، وبكلّ الخصائص الّتي تحدّثنا عنها؛ كقوّة التّأهيل، وشروط التّنشئة، ونوعيّة العلاقة، ونظرة أبناء هذا الجيل للجيل الحاكم الأكبر سنًّا، ولأنفسهم كجيل، ولعلاقاتهم مع الجيل الأصغر؛ كلّها شروط تعمل موضوعيًّا، في اتّجاه احتراف الجيش وابتعاده عن التّدخّل في العمل السيّاسيّ، بخلاف ما هو واقع حتّى الآن داخل النّظام السيّاسيّ الجزائريّ. اتّجاه يمكن أن يُقرّبة

[°] كمثال فقط، يمكن أن نأخذ قطاع الصّمحة الذي تنشط فيه أكثر من عشر نقابات مستقلة، زيادةً على هياكل النقابة المركزية (الاتحاد العام للعمال الجزائريين بفروعه الخاصة بالأطبّاء، وأساتذة طبّ، والممرّضين، والأطبّاء العموميّين). فعلى الرّغم من أنّ كلّ هذه الفئات قد قامت بإضرابات طويلة ـ كما حدث مع الأطبّاء- دامت أكثر من شهرين، وشهدت تنظيم مسيرات في الشارع، إلّا أنّ كلّ هذا الحَرَاك، لم يؤدّ إلى تنسيقٍ بين النقابات، أو طرح كليّ لمشاكل قطاعِ الصّمة، أو من باب أولى للقضايا السياسيّة المطروحة وطنيًا، وعلاقاتها بما يحدث في قطاع الصّمة.

[&]quot; يمكن التأكّد من موقف هذه الفئات الوسطى العليا المتعلّمة و نظر تها لنفسها ولعلاقاتها بالنظام السّياسيّ، بالعودة إلى بعض الكتابات الّتي اشتهرت في السنوات الأخيرة في الجزائر. وهي كتابات تتراوح بين السّيرة الذاتية والشهادة، أنجز ها بعض ممثلي هذه الفئة من التكنوقراط، مثل عبد الرّحمن حاج ناصر، محافظ البنك المركزيّ السّابق (۱۹۹۲/۱۹۸۹)، الذي عبر عن هذا الشّعور بهذه الكلمات في مقدمة الكتاب: "أكتب وأنا على مشارف الستينات من العمر. حقيقة أنا أشعر يوميّا بالاحتقار. احتقار أشعر به كمواطن جزائري، ولكن كاطار سابق على وجه الخصوص، أي باعتباري معنيًا بما كان يفترض أن تكون عليه النّخبة في الجزائر. إذ المفترض في من هو في عمري، أن يبدأ في حصد ما جناه طوال حياته، مع كامل الرّضاء عن عمله المنجز، ليعيش بشكل مريح في مسكنه، ضامنًا مستقبل أبنائه لكن في الواقع، فإنّ شعورًا كبيرًا بالإحباط ظلّ يساورني، لست الوحيد الذي يعاني من هذا الشعور، إذ يشاركني في ذلك جلّ أبناء شعبي أو كلهم! وهنا تكمن إحدى المفارقات في الجزائر. إنه شعور كان يمكن أن يساور الفئات المحرومة، أو الشعور، إذ يشاركني في ذلك جلّ أبناء شعبي أو كلهم! وهنا تكمن إحدى المفارقات في الجزائر. إنه شعور كان يمكن أن يساور الفئات المحرومة، أو حتى أولئك الذين يظنون أنهم مُقصون من النظام، لكن في الواقع، نجده شعورًا سائدًا لذى من نسميهم بأصحاب القرار، بل حتى المستفيدين من الرّيع، وهو أمر أكثر غرابة! إنه الوضع الذي يميّز الجزائر. النّاس الذين يملكون سلطة القرار، على الأقل في الظاهر، ويستفيدون من تسبير النظام، نجدهم على رأس منتقديه. حالة سخيفة فعلاً.".

لمزيد من التّفاصيل عن هذا الكتاب- الشّهادة الذاتيّة، الّذي فضّل صاحبُه أن لا يؤلّف في مجال اختصاصه الاقتصاد بعد تجربته الطويلة وطنيا ودوليا في هذا الميدان، واختار أن يكون أوّل كتاب يكتبه شهادة على الأزمة:

Abderrahmane Hadj -Nacer, La martingale algérienne : réflexion sur une crise, (Alger : éditions Barzakh, 2011).

على المدى المتوسِّط، من الحالة التركيّة الّتي ينظر إليها الكثير من الجزائريّين كحالةٍ مُثلى في حلِّ مسألة دور الجيش وعلاقته بالسّياسة.

بالطّبع؛ فإنّ عدم حصول السِّيناريو الأوّل للانتقال الّذي وصفناه بالسلس بين الجيل الأوّل والثّاني، يُمهّد عمليًا لحدوث السيّناريو الثّاني، الّذي ستترتّب عليه أدوارٌ أخرى للجيش، قد تكون المواجهات مع الفئات الشعبيّة بعضًا منها، كما حدث في النّسعينيّات، عندما زُجَّ بالجيش في مواجهة الحركات الاجتماعيّة الشعبيّة. كما قد يعني استمرار الجيش في أداورٍ سياسيّةٍ قد يكونُ جيل القيادات العسكريّة من أبناء الجيل الثّاني غير راغبٍ فيها، لأنّه ببساطةٍ لم "يتعلّم" القيام بها، ممّا يعني استمرارَ مجموعاتٍ صغيرة من القيادات العسكريّة كبيرة السِّن من أبناء الجيل الأوّل في احتكار القرار السّياسيّ، على حساب قيادات الجيل الثّاني المؤهّلة والمُسيّرة الفعليّة للمؤسّسة العسكريّة.

أمّا المدخلُ الذي سيسمح لنا بالتطرُق إلى المعطى الذّاتي الثّالث الذي نعتقد أنّه لن يكون لصالح التّغيير، فيتعلَّق بما أسميناه في هذه الدّراسة "خصائص الثّقافة السّياسيّة الشّعبيّة" الّتي وصفناها بكونها مطلبيّة جذريّة ومساواتيّة. فهي ثقافة تفضّل التّعبير عن نفسها من خلال الفعل المباشر. ليضعنا ذلك في هذه الأيّام؛ أمام محطّة تاريخيّة أخرى، يكرّر المجتمع الجزائريّ نفسه فيها، بما يميّزه من خصائص سياسيّة، وتركيبة اجتماعيّة وثقافيّة، وفئاتٍ شعبيّة جذريّة ومُطالبة تتحرّك وتُبادر، مقابل فئاتٍ وسطى وتُخبٍ غائبة وأخرى فاقدة للمبادرة وللحركة والفعل تمامًا؛ كما حدث أثناء ثورة التّحرير، عندما فشلت الأحزاب والفئات الوسطى الّتي تتحدّث باسمها، في حلً المسألة الوطنيّة، فاسحة المجال لقُوى شعبيّة للتّدخّل والحسم. وهذا الوضع هو ما يفسّر الطّابع الشّعبيّ لثورة التّحرير في الجزائر، والجذريّة الّتي انسمت بها، مقارنة بما حدث في المغرب وتونس، على سبيل المثال، اللّتين لم تعرفا الاستعمار الاستيطانيّ الطّويل الذي عرفته الجزائر، وتمكّنت فيهما البرجوازيّة المحليّة من الهيمنة على الحركة الوطنيّة وتوجيهها بما يخدم مصالحها.

خصائص هذه الثقافة السياسية الشعبية، مقابل ما يميّز الفئات الوسطى في الجزائر من انقساميّة وعدم مبادرة سياسيّة، تجعل إمكانيات اللّقاء بين الحركات الاجتماعيّة الشّعبيّة ومؤسّسات هذه الفئات الوسطى – كالحزب والنّقابة والجمعيّة – نادرةً وصعبة التّحقيق، بكلِّ الانعكاسات الّتي يمكن أن نتصوّرها، على مآل هذه الحركات نفسها ومدى تحقيقها لأهدافها. عدم لقاء؛ سيؤثّر بقوّةٍ في مشاريع التّغيير والإصلاح في الجزائر الّتي تبدو في

أزمة؛ خاصتةً إذا ربطنا ذلك، برفض الفئات الحاكمة المُمثِّلة لجيل الثورة، مغادرة مراكز السُّلطة السِّياسيّة، على الرّغم من التَّخبُط في السياسات المُتَبَنَّاة الّذي وصل إلى حدِّ المأزق الفِعليّ في السَّنوات الأخيرة.

أخيرًا؛ فإنّ أزمة التّغيير في الجزائر، تظهر مرّةً أخرى، في تفضيل الحلول الفَردِيَّة وعدم الإيمان بالقُدرة على الفعل الجماعيّ. وهي ظاهرةٌ مُستشريةٌ لدى أكثر من جيلٍ من الجزائريّين، كما عبّرت عن ذلك بقُوَّةٍ كلماتُ أغنية المطرب باعزيز " أنا اليوم غير مبالٍ m'en fou إلى التي تتكلّم عن إنسانٍ جزائريّ غير مُبالٍ، لا يهتم لله بنفسه وبمشاكله الشخصيّة. لا ينخرط في الأحزاب الّتي غادر ساحتها، يفضل الصلاة في منزله بدل المسجد، لا يقرأ الجرائد، ولا يثق في أيِّ خطاب، لأنّ هذا وتلك، جميعها كذبٌ عنده و "فستي" (هراءٌ بالدَّارجة الجزائريّة).

مراجع الدّراسة:

- الجزائر: المعهد الوطنيّ العماليّة إلى الحركات الاجتماعيّة، (الجزائر: المعهد الوطنيّ للعمل، ٢٠٠٢).
 - ٢. جابي. ناصر، الجزائر الدّولة والنُّخب والحركات الاجتماعيّة، (الجزائر: دار الشهاب، ٢٠٠٨).
 - ٣. جابي. عبد الناصر، الانتخابات والدّولة والمجتمع، (الجزائر: القصبة للنشر، ١٩٩٩).
- ٤. مسعد. نيفين (تحرير وتتسيق)، كيف يصنع القرار في الأنظمة العربيّة، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربيّة، ٢٠١٠).
 - 5. Djabi. Nacer, *kaidi lakhdar,une histoire du syndicalisme algérien; entretiens*, (Alger: chihab éditions, 2005).
 - 6. Galissot. René (sous la direction), *Algérie : engagement sociaux et question national de la colonisation a l indépendance, dictionnaire biographique du mouvement ouvrier*, (Paris : les éditions de l'atelier le maitron, 2006).
 - 7. Ghozali. Sid Ahmed, *Questions d'état, entretien avec mohamed chafik mesbah*, (Alger: casbah éditions, 2009).
 - 8. Guerid. Djamel, *L'exception algérienne*: la modernisation a l'épreuve de la société, (Alger, casbah éditions, 2007).
 - 9. Hadj –nacer. Abderrahmane, *La martingale algérienne*, *réflexion sur une crise*, (Alger : éditions barzakh, 2011).
 - 10. Mannheim. Karl, *Le Problème des générations* (1928), trad. Gérard Mauger, (Paris, Nathan, 1990).
 - 11. Mohamed Harbi, *Aux origines du FLN, le populisme révolutionnaire en Algérie*, (Paris : Christian Bourgois, 1975).
 - 12. Mohamed Harbi, *Le FLN mirage et réalité : des origines a la prise du pouvoir*, 1975/62, (Alger, éditions Naqd /Enal, 1993).
 - 13. Rey –goldzeiguer. Annie, *Aux origines de la guerre d Algérie 1940/45. de mers –el kebir aux massacres du nord –constantinois*, (Alger: casbah éditions, 2002).
 - 14. Stora. Benjamin, *Messali Hadj: Pionnier du nationalisme algérien*, (Paris : éd. Hachette, 2004).
 - 15. Todd. Emmanuel, *Après l'empire, essai sur la décomposition du système américain*, éd Gallimard, paris 2004
 - 16. Todd. Emmanuel, Courbage. Youssef, *Le rendez –vous des civilisations*, (Paris : éd. seuil et la république des Idées, paris 2007).